تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء العاشر

للمرجع الديني
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره)

من آية ٤٢ من سورة الأنفال
إلى آية ٩٣ من سورة التوبة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد المصطفى، وعترته الطاهرين.

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٢) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٤) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦)

[٤٢] وحيث سبق الكلام حول قصة بدر، يعود السياق ليذكر جوانب أخرى من القصة كما هو عادة القرآن الحكيم، حيث يبيّن من القصة جوانب معينة فقط ، ثم يبيّن تلك الجوانب في ثنايا آيات أخرى، لتبقى للقصة ظرافتها، ولئلاّ تكون مملّة ككتب التاريخ التي تسرد القصص، ولأن يكون للنفس شوق وتلهف إلى القرآن وإلى القصة يسوقان الإنسان إلى التملّي منها. وتبتدئ بذكر الغنيمة والحكم فيها، كما ابتدأت السورة بذكرها في الجملة فقال سبحانه: {واعلموا} أيها المسلمون {أنما غنمتم من شيء} والغنيمة: هي الفائدة مطلقاً سواء حصلت من الحرب أو من غيرها، وإن كان مورد نزول الآية غنائم دار الحرب، وكلمة «من شيء» للتأكيد، أي سواء كانت الغنيمة قليلة أو كثيرة {فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى} أي قرابة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وهو الإمام (عليه السلام)، فالنصف من الخمس أي عشرة من المائة منه للإمام (عليه السلام)، إذ حصة الله سبحانه للرسول وحصة الرسول للإمام، وفي حال الغيبة يدفع هذا النصف إلى نواب الإمام وهم الفقهاء الجامعون للشرائط، وهم يصرفونه في ترويج الإسلام، حيث قال الإمام (عليه السلام): «إن الخمس عوننا على ديننا»[1].

وإنما ذُكر «الله» سبحانه تعظيماً لأمر الرسول والإمام واحتراماً لهما، حيث قُرنا به، وإلاّ فالأموال كلها لله سبحانه {و} النصف الآخر من الخمس لـ {اليتامى والمساكين وابن السبيل} ممن ينتهي نسبه إلى هاشم جدّ الرسول (صلى الله عليه وآله) من السادة. ويشترط في هؤلاء الفقر، وقد عوّضهم الله عن الزكاة التي جعلت لغير السادة ـ إذا كانت من غير السادة ـ ثم أن الأربعة أخماس الباقية من الغنيمة، تقسم بين المقاتلين في غنائم دار الحرب، ولصاحب المال في خمس سائر الغنائم، فإن الخمس يجب في سبعة أشياء: غنائم دار الحرب، والمكاسب مطلقاً، والغوص، والكنز، والمعدن، والحلال المختلط

(١) الكافي: ج١، ص٥٤٧.

بالحرام، والأرض المنتقلة إلى الذمي {إن كنتم آمنتم بالله} أي لا تطمعوا في كل الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله، فهو متعلق بقوله «واعلموا» وليس مفهوم الشرط: أن الخمس ليس لهؤلاء إن لم تكونوا آمنتم، بل مفهومه إن كنتم آمنتم تؤمنون بذلك.

{و} إن كنتم آمنتم بـ {ما أنزلنا على عبدنا} يعني الرسول {يوم الفرقان} أي يوم فرقنا بين الحق والباطل وهو يوم بدر {يوم التقى الجمعان} جمع المؤمنين من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) وجمع الكافرين من أهل مكة للقتال، والمراد بـ«ما أنزلنا» الملائكة أو النصر، إي: إن كنتم مؤمنين بالله وبما أنزل من النصر والملائكة على الرسول يوم بدر، تؤمنون بهذا الحكم الذي هو كون الخمس للطوائف الستة المذكورين وليس للمقاتلين فيه حق {والله على كل شيء قدير} فيقدر أن ينصر الجماعة القليلة على الجماعة الكثيرة.

[٤٣] إن المسلمين خرجوا من المدينة لإدراك قافلة أبي سفيان التجارية فنزلوا بضفة الوادي القريبة من المدينة ونزل جيش المشركين ـ الذين جاءوا من مكة لإنقاذ القافلة ـ بقيادة أبي جهل على الضفة الأخرى البعيدة من المدينة، وبين الفريقين ربوة، أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيش، ولم يكن كلا الجيشين يعلم بموقع الجيش الآخر حتى أنه لو كان بينهما موعد للقاء لم يجتمعا بهذه الكيفية ولكن الله جمعهما على جانبي الربوة لينصر المسلمين على الكفار ويرى الجميع من الدلائل الباهرة ما يكفي لإتمام الحجة، وقد رأى الرسول (صلى الله عليه وآله) في الرؤيا جيش المشركين قليلاً فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا وتشجعوا وأقدموا على القتال، ولو رآهم كثيراً وأخبر أصحابه بذلك لخافوا ووجلوا فيفشلوا، ولم تكن الرؤيا كاذبة فإنهم بعددهم الكثير كانوا قليلاً في الواقع بالنسبة إلى قواهم المعنوية الضئيلة.

والقرآن الحكيم يبيّن هذا الطرف من القصة بقوله سبحانه: {إذ أنتم} «إذ» متعلق بقوله: «وما أنزلنا على عبدنا» أي أن إنزالنا كان في وقت كنتم أيها المسلمون {بالعدوة الدنيا} مؤنث «أدنى» أي العدوة القريبة من المدينة، و«العدوة» شفير الوادي، فإن لكل وادي عدوتان أي جانبان {وهم} أي الكفار {بالعدوة القصوى} مؤنث «الأقصى» بمعنى البعيدة، أي في الطرف البعيد من الوادي، وبعده باعتبار المدينة المنورة {والركب} أي قافلة قريش التجارية، وهو جمع «راكب»، كصاحب وصحب {أسفل منكم} أي في مكان أسفل منكم إلى جانب البحر، وليس المراد بـ«الأسفل» الانخفاض بل الأبعد.

والفائدة في ذكر هذه المواطن الإخبار الدال على قوة المشركين وضعف المسلمين وإن غلبتهم في مثل هذه الحالة كان بأمر إلهي وذلك أن العدوة القصوى كان فيها الماء ولا ماء بالعدوة الدنيا، وكانت رخوةً تسوخ فيها الأرجل وكانت العير وراء ظهورهم مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتحملهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ويبذلون نهاية جهدهم، ومع ذلك فقد نصر الله المسلمين.

{ولو تواعدتم} أنتم والكفار على اللقاء في مكان واحد {لاختلفتم في الميعاد} فإنكم كنتم تخافونهم لكثرتهم واستعدادهم، وهم كانوا يخافونكم لشدة بطشكم، وما أُدخل في قلوبهم من الرعب منكم، فقد كانت أسباب عدم القتال، أو القتال بهزيمتكم متوفرة {ولكن} شاء الله سبحانه وقدّر أن يجمعكم بهذه الكيفية وينصركم عليهم {ليقضي الله أمراً} أي ينفذه ويأتي به إلى الوجود {كان مفعولاً} أي واجباً أن يُفعل ومقدراً أن يكون، فقد قضى سبحانه إعزاز الإسلام ونصرة المسلمين.

وإنما قضى ذلك {ليهلك من هلك عن بينة} أي ليموت من يموت من الكافرين بعد تمام الحجة عليه، فإن نصر المسلمين بتلك الكيفية كان من البراهين الدالة على صدق الرسول (صلى الله عليه وآله) فمن لم يؤمن بعد ذلك ومات، كان هلاكه بعد إتمام الحجة عليه {ويحيى من حيّ عن بينة} أي يعيش من عاش منهم بعد إتمام الحجة عليه، وهذا كما يقال: «أتممت الحجة على الأحياء والأموات»، أو المراد من «الهلاك والحياة» الكفر والإسلام، فقد تقدم أن الحياة الكاملة في الإسلام، كما أن الكافر ليس إلا ميتاً في كثير من الأمور الحيوية، ولذا يقال عن المؤمن أنه حي، وعلى الكافر أنه ميت، كما قال سبحانه: (اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[٢]، {وإن الله لسميع} لأقوالكم {عليم} بضمائركم، فإن الحرب غالباً مثار كلام غير لائق ونيات سيئة، ولذا يذكّرهم سبحانه بوجوب حفظ الألسنة والضمائر عن السوء.

[٤٤] وقد ذُكر ما تقدم من نزول النصر {إذ يريكهم} أي يريك {الله} الكفار {في منامك} يا رسول الله {قليلاً} لتخبر بذلك المؤمنين فتقوى قلوبهم {ولو أراكهم كثيراً} أي أراك الله الكفار كثيراً، ثم أخبرت بذلك المؤمنين {لفشلتم} أيها المؤمنون وضعفت عزيمتكم في قتالهم، فإن الفشل هو الضعف عن فزع وخوف {ولتنازعتم في الأمر} أي في أمر محاربتهم حيث كنتم ترهبونهم، فيقول بعضكم: نقاتلهم، ويقول بعض: لا نقاتلهم {ولكن الله سلّم} أي سلّم المؤمنين عن الفشل والتنازع واختلاف الكلمة {إنه} سبحانه {عليم بذات الصدور} أي بما يدور في صدور الناس من الوساوس وتقلّب وجوه الرأي. وقد ذكرنا أن «الإراءة قليلاً» لم تكن كذباً بل باعتبار أن الإنسان القوي دائماً يرى الكثير قليلاً، بخلاف الإنسان الجبان الذي يرى القليل كثيراً، هذا بالإضافة إلى أنه محسوس مجرّب، مبسوط في علم النفس ومشروح.

[٤٥] وحيث تقابل الجيشان رأى المسلمون قلّة المشركين، لِما كانوا يحملونه من القوة في نفوسهم والتصميم والإرادة بتسديدهم وعزمهم، ورأى المشركون قلة المسلمين حيث كانوا قليلاً عدداً، فإن المسلمين كانوا ثلاثمائة وثلاث عشر بينما كان الكافرون بين التسعمائة والألف، وحيث كان كل فريق يرى خصمه قليلاً تجرّأ الطرفان على القتال مما أدى إلى نصر المسلمين {وإذ يريكموهم} أي يريكم الله

---

(٢) سورة الأنفال: ٢٥.

أيها المؤمنون، الكافرين {إذ التقيتم} أي في زمان لقائكم وإياهم في ساحة القتال {في أعينكم} أي في نظركم {قليلاً} فكان الكفار في نظر المسلمين قليلين لِما عندهم من الإرادة والقوة.

ومن المعلوم أن الحالات النفسية تؤثر في حواس الإنسان الظاهرة، وقد كان هذا بإرادة الله سبحانه حيث قوّى نفوس المسلمين حتى يروا الكافرين قليلين فيطمعوا فيهم {ويقلّلكم} أيها المؤمنون {في أعينهم} أي أعين الكافرين، فقد أراد الله سبحانه أن يقلل المؤمنين في نظر الكافرين لئلاّ ينسحبوا عن قتالهم، فلا ينال المؤمنون منهم نيلاً، وقد كان ذلك سبب غرور الكافرين فقد كان أبو جهل يقول لأصحابه: خذوا المسلمين بالأيدي أخذاً ولا تقاتلوهم.

وإنما فعل ذلك سبحانه، بأن قلّل كل جانب في نظر الجانب الآخر {ليقضي الله أمراً كان مفعولاً} أي ينفذ إرادته في غلبة المسلمين، التي كانت قد قُدّرت. وقد كررت هذه الجملة تأكيداً، ولإفادة أن النصر كما كان من عند الله، كان التقليل من عنده أيضاً {وإلى الله ترجع الأمور} فإن الأمور كما كانت بقدر الله وقضائه، كذلك تكون مصائر الأمور إليه، فبيده المبدأ والمعاد، وهذا التشجيع للمسلمين في أن يقدموا، فإن المبدأ والمنتهى بيد ناصرهم ومعينهم وهو الله سبحانه.

[٤٦] وحيث بيّن سبحانه كيف أنه نصر المؤمنين في موقعة بدر مع كون القوى المادية كانت بجانب الكافرين، أمر المسلمين أن يثبتوا أمام كل مشكلة، فإن الله بجانبهم دائماً {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً} كافرةً أو مخالفةً، ممن عتي عن أمر الله سبحانه {فاثبتوا} ولا تنهزموا أمامهم، فإن الثبات يوجب النصر، وبالعكس الانهزام والفرار يوجبان الفشل والخسران {واذكروا الله كثيراً} مستعينين به في الحرب والدعوة، فإن ذكر الله سبحانه يشجّع الإنسان ويقوّي فيه العزيمة، كيف والإنسان بتكرار الذكر، تتكون فيه ملكة الاتصال بالقوى الكونية، هذا بالإضافة إلى أن نصرة الله سبحانه توجب قوة وطاقة خارقة في النفس، كما ثبت في علم النفس {لعلكم تفلحون} أي لكي تنجحوا وتظفروا وتفوزوا بخير الدنيا والآخرة.

وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٧) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٩) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٣)

[٤٧] {وأطيعوا الله} فيما أمركم {ورسوله} فيما بيّن لكم. وقد مرّ مكرراً أن قرن اسم الرسول باسم الله سبحانه للتعظيم، ولأنه (صلى الله عليه وآله) هو المبيّن. {ولا تنازعوا} فيما بينكم فيقول بعض: نقدم، ويقول بعض: نحجم {فتفشلوا} فإن التنازع يوجب تبديد القوى المعنوية بالإضافة إلى تبديده وإضاعته للقوى المادية {وتذهب ريحكم} أي دولتكم، فإن الريح بمعنى الدولة لغةً، أو هو من باب التشبيه، فإن الدولة تشبّه بالريح لهبوبها وسيطرتها على الأشياء ونفوذ أمرها، يقال: «هبت ريح فلان» إذا نفذ أمره.

والتنازع، لا يُجزئ القوى إلى سلب وإيجاب فقط، بل فوق ذلك يُضعف القوى الإيجابية. فلو فرضنا أن طاقة زيد تُقدّر بألف مقاتل، فإذا خالفه عمرو قُدّرت طاقته بخمسمائة، حتى أنه لو كان وحده بدون مخالف لقدرت طاقته بألف، وذلك لأن المخالف يحدّ من النشاط ويُضعف من القوى، بخلاف التجمع فإنه يزيد الطاقة الألفية إلى الألفين. ولذا ثبت في علم النفس أن الإنسان إذا رأى خلافاً فالأفضل أن يصمّ عن المخالف حتى يبقى على قواه الذاتية، ولا تحد من نشاطه الطاقة المناوئة.

{واصبروا} والفرق بين الثبات والصبر، أن الصبر يلائم حالة الهزيمة والنصر، وهو مقابل الجزع، والثبات مقابل الانهزام، ومن الواضح أن الصابر يصل إلى مطلبه ولو انهزم وقتياً {إن الله مع الصابرين} بالنصر والظفر، وليس المراد المعية الجسمية، كما هو واضح.

[٤٨] {ولا تكونوا} أيها المؤمنون {كالذين خرجوا من ديارهم} من أهل مكة {بطراً} «البطر» الخروج من موجب النعمة بالكفر، من «بطر» يعني «شق»، ومنه «البيطار» لأنه يشق اللحم بالمبضع، فقد خرج الكفار من مكة بالمعازف والطبول {ورئاء الناس} فإنهم لما خرجوا مُلئوا خوفاً ورعباً

من المسلمين، ولكن خرجوا ليظهروا أنهم لا يبالون بالمسلمين ويُظهروا شوكتهم {ويصدون عن سبيل الله} هذا مقابل قولهم أنهم أولى بالبيت من المسلمين. والمراد بـ«الصد» المنع عنه، حيث كانوا يقفون دون تبليغ الأحكام {والله بما يعملون محيط} إحاطة علم وقدرة فيجازيهم بما عملوا.

قال ابن عباس: أنه لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره، أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً. وكان بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام. فنقيم بها ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً[٣].

وإلى هذا أشارت الآية الكريمة، فإن المسلمين يجب أن يكونوا مؤدبين بآداب الله سبحانه حتى في حالة الحرب.

[٤٩] في موقعة بدر جاء إبليس إلى كفار مكة في صورة سراقة بن مالك فقال لهم: إني جار لكم ادفعوا إليّ رايتكم. فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) وأقبلت قريش يقدمها إبليس معه الراية فنظر إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال لأصحابه: غضوا أبصاركم وعضوا على النواجذ ولا تسلّوا سيفاً حتى آذن لكم. ثم رفع يده إلى السماء فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت لا تعبد، لا تعبد»[٤] ثم أصابه الغشي فسُري عنه وهو يسلت العرق عن وجهه وهو يقول: هذا جبرائيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين. فنظروا فإذا بسحابة سوداء فيها برق لامع قد وقع على عسكر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقائل يقول: أقدم حيزوم، أقدم حيزوم. وسمعوا قعقعة السلاح من الجو ونظر إبليس إلى جبرائيل فتراجع ورمى باللواء فأخذ منبه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال: ويلك يا سراقة تفت في أعضد الناس، فركله إبليس ركلة في صدره وقال: إني بريء منكم.

{و} قد كان ذلك {إذ زين لهم الشيطان أعمالهم} أي في وقت حسّن الشيطان أعمال المشركين في نظرهم بأن شجّعهم على قتال المسلمين، ويحتمل أن يكون «إذ» معمولاً لفعل مقدّر هو «اذكر» {وقال} الشيطان للكفار: {لا غالب لكم اليوم من الناس} أي لايغلبكم أحد من الناس لكثرتكم وقوتكم فانهضوا لقتال المسلمين. في بدر. {وإني جار لكم} من الإجارة، ناصر لكم على عدوّكم {فلما تراءت الفئتان} أي التقت، فرقتا المسلمين والكافرين {نكص} الشيطان أي رجع {على عقبيه} أي متقهقراً منهزماً، فإن الإنسان إذا أراد أن يتقهقر اعتمد على عقب رجليه، وهذا تشبيه لإفادة الفرار مع الجبن، فإن الجبان لا يُدبر خوفاً من أن يلحقه الطلب.

---

(٣) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢٣٦.

(٤) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢٥٥.

{وقال} الشيطان للكفار: {إني بريء منكم} فلا صلة بيننا، ولا أفي بما ضمنت لكم من الإجارة والنصر {إني أرى ما لا ترون} فقد رأى الشيطان الملائكة وكان يعرفهم، وعلم أنه لا طاقة له بهم، كما أن الملائكة كانت تعرف الشيطان {إني أخاف الله} بأن يعذبني على أيدي الملائكة {والله شديد العقاب} لا يُطاق عذابه.

وفي بعض التفاسير: وإنما قام الشيطان بهذا العمل ـ أي تشجيع الكفار ـ لأن الله سبحانه شاء أن يخرجهم إلى حرب المسلمين، فتنكسر شوكتهم وتذهب ريحهم ويتحطم كبرياؤهم.

ومن الانهزامية المادية أن نُأوّل هذه الآية كسائر الآيات المبينة لما وراء المادة، بتأويلات لا تنافي الأمور المادية، فإن التأويل إنما يصح إذا دل عقل أو نقل قطعي على خلاف الظاهر، أما إذا لم يدل دليل ولم تكن هناك قرينة، فأي مبرّر لأن نترك الظاهر بمجرد أنه يلائم الأمور المادية، ولو فتح هذا الباب للزم أن نقول بذلك حتى في القرآن الحكيم نفسه، إذ هو أيضاً أمر خارج عن طوق المادة.

[٥٠] كان تزيين الشيطان للمشركين قتالهم مع المسلمين {إذ يقول المنافقون} أي في حال صدور هذه المقالة عن المنافقين، والمراد بهم إما الكفار، فإن الكافر باعتبار أنه يعلم الواقع ويظهر خلافه يسمى منافقاً، وإما المسلمون المنافقون {والذين في قلوبهم مرض} إما عطف بيان، أو يراد أحد اللفظين المسلمون المنافقون، وبالتالي الكفار، والمراد بالمرض مرض الانحراف عن المنهج المستقيم، فإن البدن كما يصاب بالأمراض الجسمية، كذلك الروح تصاب بالأمراض الخلقية، فالبخل والحسد والجبن وما أشبه أمراض {غرّ هؤلاء دينهم} أي غرّ المسلمين دينهم حتى خرجوا مع قلّتهم وصمّموا على قتال الكفار الأقوياء عدداً وعدّة {و} ليس الأمر كذلك فإنه {من يتوكل على الله} فيُسلم أمره إليه ويثق به {فإن الله عزيز} لا يُغلب، وكذلك لا يُغلب المتوكلون عليه {حكيم} فيما يفعل، يضع الأمور مواضعها، فلا يترك المسلمين ولا يخذلهم، بل ينصرهم على الكافرين، فإنه له القوة يمنحها المتوكلين عليه، وله الحكمة يدبّر بها الأمور.

[٥١] إن الكافرين كان مبدأ أمرهم ـ في مقابلة المسلمين ـ الانهزام، فلننظر إلى مصيرهم {ولو ترى} يا رسول الله، أو المراد كل من تتأتى منه الرؤية {إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة} أي تقبض الملائكة أرواح الكفار عند موتهم {يضربون وجوههم وأدبارهم} أي يضربونهم من الأمام ومن الخلف، كما يُضرب المجرم الكثير الإجرام {و} يقال لهم: {ذوقوا عذاب الحريق} أي العذاب الذي يُحرق.

وقد روي أن الملائكة كانت تضرب قتلى المشركين في بدر بالمقامع فتلهب جراحاتهم بالنار وتزهق أرواحهم(٥). والإتيان بصيغة الأمر في «ذوقوا» لتصوير المشهد كأنه مجسّم أمام المخاطب، وهو من باب الإلفات، كما ذكر في علم البلاغة.

---

(٥) راجع مجمع البيان: ج٤، ص٤٨٠.

[٥٢] {ذلك} العقاب لكم أيها الكفار {بما قدمت أيديكم} أي بما قدّمتم وفعلتم من الكفر والمعاصي، وإنما نسب إلى اليد، للتغليب، فإن كثيراً من الأعمال تأتي بواسطة اليد {وأن الله ليس بظلاّم للعبيد} «ظلاّم» صيغة للنسبة، لا مبالغةً، كتمّار بمعنى المنسوب إلى التمر. قال ابن مالك:

ومع فاعل، وفعّال، فَعِل في نسب أغنى عن اليا فقبل

ومن المحتمل أن تكون مبالغة، وذلك لإفادة أنه سبحانه لو كان ظالماً لكان كثير الظلم لأن كل صفة تصحّ فيه تعالى لا بد وأن تبلغ شأناً كثيراً، فنفي المبالغة نفي للأصل، والمعنى: إن العقاب ليس إلا بسبب جناية العبد، لا أنه اعتباطي منه سبحانه.

[٥٣] {كدأب آل فرعون} الدأب: العادة، والكافر للتشبيه، أي أن عادة هؤلاء المشركين في الكفر بمحمد (صلى الله عليه وآله)، كعادة آل فرعون وهم قومه وأتباعه {والذين من قبلهم} من أقوام الأنبياء، في الكفر بالرسل وتكذيبهم، فليس تكذيب هؤلاء جديداً، فإن السابقين عليهم أيضاً {كفروا بآيات الله} وما أنزل على الأنبياء {فأخذهم الله بذنوبهم} بأن عاقبهم وأنزل عليهم أنواع العذاب {إن الله قوي} لا يقدر أحد على التمرد عليه، فإذا أراد أخذ أحد أخذه أخذ عزيز مقتدر {شديد العقاب} وليس عقابه يسيراً هيّناً حتى لا يُخشى منه.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٤) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٥) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٥٦) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ (٥٧) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٨) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٩) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ (٦٠) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦١) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٢)

[٥٤] {ذلك} العقاب الذي حلّ بأولئك وهؤلاء، ليس اعتباطاً وابتلاءً من الله سبحانه بلا استحقاق بل {بـ} سبب عملهم، لـ {أن الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما} أي الحالة الصحيحة التي كانت {بأنفسهم} إن الصحة والرخاء والأمن والغنى أحوال لاصقة بأنفس الناس، منحها الله إياهم، وطلب أن يعملوا برضاه فيها، فإذا غيّروا ما طلب منهم بالنسبة إليها، بأن صرفوا تلك النعم إلى المعاصي، غيّر الله تلك النعم فأبدل الصحة مرضاً، والرخاء ضنكاً، والأمن اضطراباً، والغنى فقراً. وهذا بالإضافة إلى كونه مرتبطاً بما وراء المادة، مرتبط بالمادة أيضاً، فإن الصحة تنحرف باستعمال المحرمات الضارة، والرخاء ينحرف بعدم التعاون والعداء مما يسبب تفكك المجتمع فلا يزرع بمقدار ما كان التعاون يسببه، وهكذا، والأمن ينحرف إذا نوى كل إنسان الشر بأخيه، والغنى ينحرف إذا كسل الناس عن العمل أو عملوا أعمالاً غير مثمرة لا تفيد مالاً.

ومن المعلوم أنه لا يلزم أن يكون الناس مؤمنين ثم يكفرون، بل هنالك مناهج بشرية عامة قرّرها سبحانه إذا سادت المجتمع كانوا في أمن ورفاه، فإذا غيّروها تغيرت النعمة، مثلاً الظلم والقتل قبيحان، والتعاون والإحسان حسنان، أما بالنسبة إلى من بدّل الإيمان كفراً ومناهج الشريعة أهواءً، فذلك أوضح {وأن الله سميع} يسمع أقوال الناس {عليم} بضمائرهم، فإذا رأى تغييراً في النيات، وانحرافاً في الكلمات غيّر ما أعطاهم من نعمة وما تفضّل عليهم من أمن وراحة.

[٥٥] {كدأب آل فرعون} أي أن عادة هؤلاء الكفار كعادة آل فرعون {والذين من قبلهم} من سائر الأمم. وإنما كرّر لتأكيد أن الحالة هي الحالة، فإن كثيراً من الناس لا يصدقون أن ما جرى في الأمم السابقة تجري في هذه الأمة، ولذا يحتاج الأمر إلى تركيز وتقرير، وذلك لايكون إلا بالتكرار

والتذكير مرة فمرة {كذبوا بآيات ربهم} دلائله وحججه {فأهلكناهم بذنوبهم} فلم يموتوا ميتة طبيعية، وإنما أُخذوا بالعذاب {وأغرقنا آل فرعون} مع فرعون نفسه، فإنه قد يطلق «الآل» على الأعم من الشخص للتغليب، كما تقدم في قوله: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ)[٦]، {وكلٌّ} من تلك الأمم التي أهلكناهم {كانوا ظالمين} وتخصيص الكلام بآل فرعون، لأن كفرهم وعقوبتهم كانت ظاهرة واضحة لدى السامعين.

[٥٦] {إن شر الدواب} الدابة: كل ما يدبّ على وجه الأرض، لكن المنصرف منها الحيوان، وشرّ الجميع {عند الله} في حكمه {الذين كفروا} واستمروا على كفرهم {فهم لا يؤمنون} «الفاء» لعطف جملة على جملة. ولا يقال: إن الدواب لا شر فيها، فكيف يجعل الكافر شراً منها، لأنه يجاب عنه: بأن من الدواب ما فيها شر كالسامة والمؤذيات. والتي ليس فيها شر، يُعدّ شراً باعتبار أنها لا تهتدي طريقاً، وليس المراد بالشر هذا المعنى فقط.

[٥٧] ثم بيّن سبحانه المصداق الظاهر لذلك بقوله: الكفار {الذين عاهدت منهم} عهد حسنِ الجوار بأن تكون في أمن منهم، وهم في أمن منك {ثم ينقضون عهدهم في كل مرّة} أي كلّما عاهدوا نقضوا العهد ولم يفوا به {وهم لا يتقون} الله ولا يخافون عقابه، أو لا يتقون نقض العهد. والظاهر من الآية أن ذلك كان دأب بعض الكفار.

وفي «المجمع»: عن مجاهد أنه أراد به يهود بني قريظة فإنهم قد عاهدوا النبي (صلى الله عليه وآله) على أن لا يضرّوا به ولا يمالئوا عليه عدواً، ثم مالئوا عليه الأحزاب يوم الخندق وأعانوهم عليه بالسلاح، وعاهدوا مرة بعد أخرى فنقضوا[٧].

[٥٨] وما هو جزاء هذه الفئة التي هي شرّ من الدواب ولا تلتزم حتى بالعهود؟! {فإما تثقفنّهم} «إن» الشرطية و«ما» زائدة، و«ثقف» بمعنى: ظفر، أي إن ظفرت بهم يا رسول الله {في الحرب فشرّد بهم من خلفهم} «التشريد» هو التفريق، أي نكّل بهؤلاء تنكيلاً وفرّقهم تفريقاً حتى يتعثّر بهم من هم ورائهم من الذين عاهدوا معك، حتى يخافوا فلا ينقضوا العهد. فتكون الآية دالّة على أمرين: الأول: تأديب هؤلاء الناقضين للعهد. الثاني: إلقاء الرعب في قلوب الآخرين لئلاّ ينقضوا عهدهم {لعلهم} أي لعلّ من خلفهم {يذّكّرون} أي يتذكرون أن نقض العهد يوجب مثل هذا التأديب فلا يقدموا على مثله، فإن نقض العهد من أسوأ الأعمال، إذ يدل ذلك على أن المعاهدة كانت للضعف، فكلّما وجد أحد المعاهدين سبيلاً إلى نقضه نقضه، وهذا يوجب سقوط قيمة المعاهدات، وأن لا يكون المتعاهدون بعضهم في أمن من بعض. أما الخدعة في الحرب فليست قبيحة إذ تلك بعد تأهّب كل فريق.

---

(٦) سورة آل عمران: ٣٤.

(٧) مجمع البيان: ج٤، ص٤٨٣.

[٥٩] {وإما تخافن} «إمّا» مركّبة من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة، تأتي للتوسع في معنى الشرط، يعني: ولو كان الاحتمال ضعيفاً، إن لم تدخل نون التأكيد، وإلاّ أفادت التأكيد في الشرط، بأن يكون الاحتمال قوياً {من قوم خيانة} أي إن خفت يا رسول الله من قوم من هؤلاء المعاهدين خيانة، بأن يخونوا عهدك ويحاربوك فجأة بعد إبرام الميثاق {فانبذ إليهم على سواء} أي ألقِ المعاهدة بينك وبينهم، إلقاءً منتهياً إليهم، بمعنى أعلمهم عن إلقاءك للعهد، حتى يكون كلا الطرفين على سواء في الأمر، لا أن يكونوا هم بصدد المباغتة وأنتم في أمن ودعة منهم، فإن الإنسان إذا علم أن خصمه في عهد يأمن، أما إذا علم أنه في حرب يستعد، أما أن يبقى متزلزلاً يخاف خيانته، فإنه في اضطراب وارتباك، والعهد في نظر العرف ليس مما إذا أُبرم دام، بل معلق بنقضه من الطرفين مع الإعلام {إن الله لا يحب الخائنين} أي فلا تخنهم يا رسول الله بالقتال فجأة بدون إعلام، بل أعلمهم النقض ثم إذا أردت قتالهم، فقاتلهم بعد الإعلام.

وعن بعض المفسرين: إن الآية نزلت في بني قينقاع من اليهود، فإنه كان بين النبي وبين أولئك معاهدة، وحيث أن اليهود كان من طبعهم الخيانة خاف الرسول (صلى الله عليه وآله) ذلك، ولذا حلّ العهد الذي بينهم، لئلاّ يباغتوه وهو (صلى الله عليه وآله) في أمن منهم. ثم صارت بينهم المحاربة[٨].

[٦٠] إن الكفار بنقضهم العهد دون الإعلام، وخيانتهم وغدرهم ـ كما صدر من بني قريظة ـ يظنون أنهم قد سبقوا، وأدركوا فرصة ذهبية سببت عجز المسلمين، لكنه ليس كذلك {ولا يحسبن} يا رسول الله {الذين كفروا} بنقضهم العهد وغدرهم {سبقوا} واستفادوا من فرصة المباغتة والسبق {إنهم لا يعجزون} أي أن هؤلاء الكفار لا يُعجزون المسلمين، بمعنى أنهم بغدرهم لا يسببون عجز المسلمين، بل الله سبحانه ناصرهم، فإن الله سبحانه في عون الوفيّ لا الغادر، ولذا ذهب بنو قريظة أدراج خيانتهم، بينما غلبهم المسلمون.

[٦١] {وأعدوا} أيها المسلمون، والإعداد هو التهيئة قبل وقوع الأمر {لهم} أي للكفار {ما استطعتم} ما قدرتم عليه {من قوة} دفاعية وهجومية، بتهيئة وسائل الحرب، حتى تكونوا دائمي الاستعداد، سواءً هاجمتم أو هوجمتم. ولعل إطلاق القوة يشمل جميع أنحاء القوى المادية والمعنوية وغيرها {و} ما استطعتم {من رباط الخيل} أي ربط الخيل واقتناءها للجهاد والحرب {ترهبون به} أي تخوّفون بسبب إعداد ما استطعتم {عدو الله وعدوكم} فإن الكافر عدو الله لمخالفته له، وعدو المسلمين كما هو واضح. ولعل المراد بهم: أهل مكة، فإنهم كانوا ظاهري العداوة {وآخرين من دونهم} أي ترهبون به كفاراً آخرين دون أولئك في العداوة، أي أن عداوتهم أضعف، أو دون أولئك في المحل كبني قريظة الذين

(٨) مجمع البيان: ج٤، ص٤٨٥، عن الواقدي.

كانوا قريبين من المدينة {لا تعلمونهم} أي لاتعلمون أيها المسلمون أنهم أعداء لكم {الله يعلمهم} حيث يعلم ما بطن من الأمور.

وهذا درس للمسلمين بأن يستعدوا لأي عدو لئلاّ يُباغتوا {وما تنفقوا من شيء في سبيل الله} فإن الحرب تحتاج إلى الإنفاق، ولذا يقرن غالباً الجهاد بالإنفاق في الآيات الكريمة {يوفّ إليكم} أي يرجع إليكم في الدنيا بالغنيمة وشبهها، وفي الآخرة بالثواب الجزيل {وأنتم لا تظلمون} لا يظلمكم الله تعالى بأن يعطيكم أقل مما أخذ منكم.

[٦٢] {وإن جنحوا} الجنوح: الميل، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في أحد طرفيه، أي إن مال الكفار {للسلم} وعدم الحرب {فاجنح لها} أي مِلْ إليها واقبلها منهم، و«السلم» مؤنث سماعي، ولذا جيء بالضمير مؤنثاً {وتوكّل على الله} أي فوّض أمرك إليه، فلا تخف أن تفوتك الفرصة، فإن السلم أحرى أن تلين القلوب فيه ويكفي مؤونة أتعاب الحرب {إنه} سبحانه {هو السميع} لأقوال الطرفين {العليم} بنياتهم، فلا يفوته غدر غادر وسلم مسالم. ومن المعلوم أن الجنوح للسلم إذا كان من مصلحة المسلمين فلا ينسخ قوله: (قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ)[٩]، هذه الآية، بل كلٌّ في مقام المصلحة.

---

(٩) سورة التوبة: ٣٦.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٣) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٥) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (٦٦) الآَنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٧) مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآَخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٨) لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٩) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)

[٦٣] {وإن يريدوا} أولئك الذين يجنحون للسلم {أن يخدعوك} بأن يجدوا فرصة لتهيئة العدّة للغدر بك وقتالك {فإن حسبك الله} هو يكفيك شرهم، ويتولى أمورك، فإنه كما كفاك سابقاً يكفيك الآن {هو الذي أيدك} أي قوّاك {بنصره} أي النصرة التي أنزلها عليك {وبالمؤمنين} أي أيدك بالمؤمنين الذين التفوا حولك، فتمكنت أن تبارز بهم الأعداء.

[٦٤] {وألّف بين قلوبهم} المتنافرة حتى يكونوا قوة واحدة في وجه الأعداء، فإن وحدة الكلمة من أهم أسباب النصر، وقد كانوا قبل الإسلام في أشد حالة من العداوة والبغضاء حتى أنه كان بين الأوس والخزرج عداوة وقتال دام أكثر من مائة سنة {لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم} فإن المال يزيد العداوة، فإنه يكون وقوداً لها، وإنما أزال الله سبحانه الضغائن بتصفية القلوب وتطهير أدران النفوس {ولكن الله ألّف بينهم} بهدايتهم للإسلام المطهّر للعداوة عن الأفئدة {إنه} سبحانه {عزيز} غالب على أمره، فإذا أراد شيئاً أوجده {حكيم} بحكمته وتدبيره يُدبّر الأمور ويُديرها.

[٦٥] {يا أيها النبي حسبك الله} أي يكفيك في مقابلة الأعداء {ومن اتبعك من المؤمنين} فإنهم كافون بالنسبة إلى القوى الظاهرة، وهذا تشجيع للرسول (صلى الله عليه وآله) لئلاّ ينظر إلى كثرة الأعداء، كما جرت العادة في الحروب العادية.

قال بعض المفسرين: نزلت في البيداء قبل الشروع في القتال في وقعة بدر[١٠].

[٦٦] {يا أيها النبي حرّض} أي رغّب {المؤمنين على القتال} بذكر فوائده وآثاره وأنهم يسودون بسببه ويحوزون الأجر والثواب في الآخرة لأجله {إن يكن منكم} أيها المؤمنون {عشرون

(١٠) مجمع البيان: ج٤، ص٤٩٠، عن الكلبي.

صابرون} على القتال {يغلبوا مائتين} من الكفار فكل واحد من المؤمنين في قبال عشرة من الكافرين {وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا} وذلك لأن الإيمان والتضحية طاقتان عظيمتان تبدّلان الإنسان العادي إلى شخص شجاع مقدام، وذلك الضعف في الكفار {بـ} سبب {أنهم قوم لا يفقهون} أي لا يفهمون، فمن يحارب عن معرفة وإيمان يُزوّد بما لايُزوّد به الإنسان الخليّ من العقيدة والدين، وإن من عرف أنه إن قُتل دخل الجنة وإن قَتل دخل الجنة، كان قوي القلب في مقابل من لا يفقه ذلك.

[٦٧] إن الفئة إذا كانت قليلة كانت الطاقة الإيمانية فيها قوية جداً، وذلك لأنها تتقوّى حتى تتمكن من مقابلة القوي، وهذا أمر بيّن في علم النفس، فالنفس القوية تأتي بما تحير العقول فيه، إما إذا كثرت الفئة فإن روح الاتكالية تقوى فيهم، وبمقدار ارتفاع نسبة الاتكالية، تنخفض القوة والطاقة، ولذا نرى الأمم أول تكوّنها أنشط منها في أواسط حياتها، فكيف بأواخرها، وهذا هو السبب في أن خفّف الله الحكم عن المؤمنين بعد أن كثروا، {الآن} وبعد أن كثرتم أيها المؤمنون {خفّف الله عنكم} في لزوم مقابلة الواحد منكم لعشرة من الكفار {وعلم} الله {أن فيكم ضعفاً} عطف على «الآن» لا على «خفف» والمراد بالضعف: ضعف الطاقة، لا ضعف الجسد {فإن يكن منكم} أيها المسلمون {مائة صابرة} تصبر على المكاره {يغلبوا مائتين} من الكفار {وإن يكن منكم ألف} صابرين {يغلبوا ألفين} من الكفار {بإذن الله} وإرادته حيث أراد لكم أن تكونوا أقوى من عدوكم بما وهب لكم من الإيمان، فإن الرجل منكم يعادل رجلين من العدو، فإنه وإن كان أضعف من الحكم السابق ولكنه أيضاً بإذنه سبحانه {والله مع الصابرين} ينصرهم ويعينهم.

ولعل الحكمين تابعان لحالة نفوس المسلمين في كل دور، فمتى رأوا قوة من أنفسهم كان العشرة منهم بمائة، ومتى رأوا الضعف من أنفسهم كان العشرة منهم بعشرين، فلا نسخ في البين، والله العالم.

[٦٨] أسر المسلمون يوم بدر سبعين أسيراً فقتل النبي (صلى الله عليه وآله) منهم ثلاثة، وخاف المسلمون أن يقتلهم جميعاً فتقدموا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بأخذ الفداء منهم رغبةً في المال، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يعلم أن قتل بعضهم أصلح، كما كان كذلك شأن الأنبياء قبله، وذلك لأن رؤوس المؤامرات إذا أُطلقوا عاثوا في الأرض فساداً وعادوا إلى المجتمع بأكثر قتلاً وفتكاً، لكن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل طلب هؤلاء لأمر أصلح وهو أن لا يختلف أصحابه بما يعود بأكثر ضرراً، فنزلت هذه الآية توبيخاً للمسلمين:

{ما كان لنبي} أي ليس له، ولم يكن في عهد الله إليه {أن يكون له أسرى} بأن يأخذ الأسير ثم يطلقه مَنّاً، أو في مقابل الفدية {حتى يثخن في الأرض} الإثخان: التغليظ، أي يحمل الأرض ثقلاً بالقتلى، أو المعنى: حتى يغلب في الأرض ليخاف الكفار سطوته، فإنهم إن علموا أنهم إن وقعوا أسرى

قُدّوا وتحرروا، جرّأهم ذلك على الاستمرار في المؤامرة والمكايدة، لكنهم إن عرفوا أن وراءهم القتل، قلت جرأتهم، وسلمت الدولة من شرهم.

فهل {تريدون} أيها المسلمون {عرض الدنيا} أي المصالح الدنيوية، وسمي عرضاً لأنه لا يبقى، والمراد به هنا: المال المأخوذ فدية {والله يريد الآخرة} فإنكم إن صرفتم النظر عن المال لأجل ثواب الله سبحانه، كان خيراً لكم {والله عزيز} ذو قوة ومنعة، فاعملوا بأوامره حتى يقويكم {حكيم} يدبر الأمور بحكمته البالغة، فما يأمر به هو المصلحة دون ما تظنون.

[٦٩] {لولا كتاب من الله سبق} أي لولا أن الله سبحانه كتب سابقاً أن لا يعذب الناس حتى يبيّن لهم، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)[١١]، {لمسّكم} أيها المسلمون {فيما أخذتم} من الفدية {عذاب عظيم}. إن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن عليه غضاضة لأنه لاحظ الأصلح من توحيد كلمة أصحابه حيث قبل أخذ الفدية مُكرهاً، أما المسلمون فقد استحقوا العقوبة حيث رجّحوا المال على ما فيه خيرهم ورغبة نبيهم (صلى الله عليه وآله).

وقد ورد في الحديث: أن الفدية كانت أربعين أوقية من الفضة، كل أوقية أربعين مثقالاً، إلاّ العباس عم النبي (صلى الله عليه وآله) حيث أُخذ منه مائة أوقية[١٢].

[٧٠] أما إذا انتهى الأمر وأخذتم الفدية {ف} لا بأس في أكلكم لها ف {كلوا مما غنمتم} من الكفار {حلالاً طيباً} والطيب إذا قورن بالحلال أفاد معنى عدم نُفرة الطبع منه في مقابل الحلال الذي ينفر منه الطبع {واتقوا الله} فلا تخالفوا أوامره {إن الله غفور} قد غفر ذنبكم في أخذكم الفدية {رحيم} يرحمكم فيما بعد بلطفه، مقابل بعض الكبار الذين إذا غفر ذنب المذنب، ينتهي الأمر عند ذلك، فلا يرحمه بعد ذلك.

---

(١١) سورة الإسراء: ١٦.

(١٢) عوالي اللآلي: ج٢، ص١٠١.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧١) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٥) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٦)

[٧١] {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم} أي تحت استيلائكم، وذكر «اليد» لأنها تكون الآخذة للأشياء غالباً {من الأسرى} جمع أسير، والمراد بهم أسرى بدر الذين أسرهم المسلمون {إن يعلم الله في قلوبكم خيراً} بأن لم تكن قلوبكم محشوة بالحقد والعداوة بل طاهرة نظيفة {يؤتكم} أي يعطيكم {خيراً مما أخذ منكم} من الفداء، وإنما يعطيكم ذلك لطفاً ورحمةً لا استحقاقاً وعوضاً {ويغفر لكم} ذنوبكم. ومن المعلوم أن ذلك مشروط بالإيمان {والله غفور رحيم} وقد كان العباس بن عبد المطلب يقول: نزلت هذه الآية فيّ وفي أصحابي، كان معي عشرون أوقية ذهباً فأُخذت مني فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً كل منهم يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية.

[٧٢] ثم سلّى الله سبحانه نبيّه حول إطلاق الأسرى بالفداء نزولاً عند رغبة أصحابه، بأنه لا يهمّه ما لعل الطلقاء يقومون به من مؤامرة جديدة ضده {وإن يريدوا} أي يريد الطلقاء {خيانتك} بأن يكون في نيّتهم تجديد المؤامرة {فقد خانوا الله من قبل} في قصة خروجهم إلى بدر {فأمكن} الله المسلمين {منهم} فقتلوهم وأسروهم، والله قادر على أن يُمكّن المسلمين منهم ثانيةً إن خافوا منهم. وسمى خروجهم إلى بدر خيانةً باعتبار وجوب شكر المنعم، لا باعتبار سبق معاهدة، فإنك إذا أنعمت وتفضلت على أحد، ثم قام ضدك يقال: أنه خانك {والله عليم} بإرادتهم الخيانة وعدمها {حكيم} يدير الأمور حسب الحكمة، فهم في قبضة علمه وإرادته لا يتمكنون من الإضرار بك.

[٧٣] وبمناسبة ذكر الحرب وعلاقة المسلمين بالمشركين، يأتي ذكر علاقة المسلمين بعضهم ببعض، وأنها علاقة الإيمان والعقيدة والهجرة {إن الذين آمنوا} بالله ورسوله وبما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله) {وهاجروا} من مكة إلى المدينة {وجاهدوا} أي حاربوا الكفار {بأموالهم} بأن بذلوها في

سبيل الجهاد {وأنفسهم في سبيل الله} ويأتي ذكر «سبيل الله» في كل مناسبة للتنبيه على أن حركة المسلمين ليست إلا لإعلاء كلمة الله {والذين آووا} أي الأنصار من أهل المدينة الذين جعلوا للرسول والمهاجرين مأوىً بأن أسكنوهم في منازلهم، فإن المهاجرين لم يكن لهم مسكناً حين وردوا المدينة فأسكنهم الأنصار معهم في بيوتهم {ونصروا} أي نصروا الرسول والمهاجرين على أعدائهم {أولئك بعضهم أولياء بعض} وليست هنالك ولاية بين المسلم وقريبه الكافر، والولاية كلمة عامة تشمل أقسام الولاية والنصرة.

{والذين آمنوا ولم يهاجروا} إلى المدينة، بل بقوا في مكة اختياراً {ما لكم} أي ليس لكم أيها المسلمون {من ولايتهم من شيء} لأنهم خالفوا أمر الرسول وأضعفوا ـ ببقائهم في مكة ـ كيان المسلمين {حتى يهاجروا} كما هاجرتم {وإن استنصروكم في الدين} أي طلب المؤمنون غير المهاجرين منكم أيها المهاجرون أن تنصروهم على أعدائهم الكفار، في الأمور الدينية {فعليكم النصر} ومن المعلوم أن النصرة غير الولاية المطلقة، لأن المسلمين في المدينة كان ينصر بعضهم بعضاً، ويسكن أحدهم الآخر في داره، ويجتمعون في السلم والحرب، وأخذ الغنائم، ويتفقد أحدهم الآخر، كأهل بيت واحد، بخلاف النصر المجرّد على الكافر الذي قرّره سبحانه للمسلمين في مكة.

{إلا على قوم بينكم} أيها المسلمون المهاجرون {وبينهم ميثاق} فإذا استنصركم المسلمون في مكة على كفار معاهدين معكم، فلا تخرقوا المعاهدة، ولا تنصروا المسلمين، لأن المسلم لا يغدر بعهده، ولا ينقض ميثاقه وإن كان مع الكافر {والله بما تعملون بصير} فلا تتركوا موالاة المهاجرين، ولا تتولوا غير المهاجرين.

[٧٤] {والذين كفروا} ليسوا لكم بأولياء وإن كانوا أقرباؤكم بالنسب أو باللغة أو بالوطن بل {بعضهم أولياء بعض} ينصر بعضُهم بعضاً ضدكم وإن اختلفوا. وبهذا المعنى ورد: «الكفر كله ملة واحدة» {إلاّ تفعلوه} أي إن لم تفعلوا ما أُمرتم به من ولاية المؤمنين، واعتبار الكفار كلهم ملّة واحدة، بأن عاديتم المؤمنين أو واليتم الكافرين {تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} لأن في ذلك تعزيزاً للكفر وإذلالاً للإسلام، وقد دلّ منطق التاريخ أن كل وقت اتخذ فيه المسلمون الكافرين أولياء، ضعفت شوكتهم وذهبت ريحهم، وبالعكس كل وقت اتخذوهم فيه أعداءً، واتخذوا سائر المسلمين أولياء، قويت شوكتهم وهبت ريحهم.

[٧٥] {والذين آمنوا وهاجروا} من مكة إلى المدينة {وجاهدوا في سبيل الله} لإعلاء كلمته وتطبيق حكمه {والذين آووا ونصروا} من أهل المدينة الذين أعطوا المسلمين مأوىً ونصروهم على أعدائهم {أولئك هم المؤمنون حقاً} لقيامهم بجميع شرائط الإيمان {لهم مغفرة} من الله لذنوبهم {ورزق كريم} أي مع الكرامة في الدنيا وفي الآخرة، فإن المؤمنين إذا ما عملوا بشرائط الإيمان تمّت عليهم بركات من السماء والأرض.

[٧٦] {والذين آمنوا من بعد} في المستقبل. حتى لا يُظن أن الأمر تمّ في زمن النبي (صلى الله عليه وآله). {وهاجروا} والهجرة باقية مهما كان الإنسان في دار الكفر مما لا يتمكن معه من إظهار معالم الإسلام {وجاهدوا معكم} ولو بنحو المعية المعنوية بأن كان جهادهم مع المؤمنين وفي جماعتهم {فأولئك منكم} في الأجر والثواب وخير الدنيا {وأولوا الأرحام} أي ذوو الأرحام والقرابة {بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} أي في حكم الله. وهذا أخص من الحكم الأول، فالقريب المسلم الجامع للشرائط أولى بقريبه المسلم الجامع للشرائط من البعيد المسلم الجامع للشرائط في جميع الجهات التي منها الإرث. ويفهم من الآية أن الأقرب من الرحم أولى من الأبعد {إن الله بكل شيء عليم} فما يذكره من الأحكام إنما هو حسب الحكمة والمصلحة، لأنه يصدر عن علم واطلاع.

وفي بعض التفاسير: إن هذه الآية نسخت الآية السابقة «أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» فإن كان هناك دليل صحيح في الدين يدل على ذلك فهو، وإلا فظاهر الآيتين غير متنافٍ حتى نحتاج إلى القول بالنسخ، والله العالم[١٣].

(١٣) راجع تفسير القمي: ج١، ص٢٨٠.

سورة التوبة

مدنية/آياتها (١٢٩)

بَرَاءةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ (٦)

سورة التوبة:

تسمى هذه السور بـ « سورة براءة» لأنها تبتدئ بهذه الكلمة، كما تسمى بالتوبة، لكثرة اشتمالها على مشتقات هذه الكلمة. ولم تبتدئ هذه السورة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» لأنها نزلت لإعلان الحرب على الكفار والمنافقين، وذلك ينافي «البسملة» التي تحمل في معناها الرحمة والسلام. ولما اختتمت سورة الأنفال بعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض ابتدأت هذه السورة بعلاقة المسلمين بالكافرين.

[١] {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين} أي هذه براءة، على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو «براءة» مبتدأ خبره «إلى الذين». ومعنى البراءة: انقطاع العصمة، يقال: «برأ يبرأ من فلان» إذا قطع ما بينهما من الصلة. والمعنى: أن لا عصمة بين المسلمين وبين الذين عاهدوهم من المشركين، فقد كان بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين المشركين معاهدات، لكنهم غدروا، ولذا أجّلهم الرسول (صلى الله عليه وآله) أربعة أشهر، فمن كان له معاهدة أعلمه الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه يبقى على المعاهدة إلى أربعة أشهر، ثم هو (صلى الله عليه وآله) حرب عليه فليتخذ حذره.

ولم يكن هذا نقضاً من الرسول (صلى الله عليه وآله) بل نقضاً منهم، ولذا قال سبحانه: (إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى

مُدَّتِهِمْ)[١٤]. وقد شاء الله سبحانه أن يطهر الجزيرة التي أصبحت عاصمة الإسلام عن رجس الشرك والنفاق لتتوحد فيها الكلمة ويكون للمسلمين دولة مرهوبة الجانب ليفرغوا إلى الروم والفرس.

[٢] {فسيحوا} أيها الكفار {في الأرض أربعة أشهر} معنى «السيح» السير، يقال: «ساح» إذا سار على مهل. أي: أنتم في مُهلة بأن تسيروا آمنين وتتصرفوا في حوائجكم بكل تأنٍ وطمأنينة إلى أربعة أشهر من ابتداء الإعلان، وهو من يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر، فإذا انقضت هذه المدة فليس لكم عهد ولا أمان، والمحاربة معكم لا تعتبر غدراً ومباغتةً {واعلموا} أيها الكفار {أنكم غير معجزي الله} أي لاتتمكنون من أن تُعجزوه وتغلبوه، بل هو القادر على أن يخزيكم بأيدي المسلمين، فلا تفكروا في محاربة المسلمين {وأن الله مخزي الكافرين} «الخزي» النكال، أي أنه سبحانه ينكل بهم وينتصر عليهم.

روى المفسرون أنه لما نزلت سورة براءة دفعها الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى أبي بكر ليذهب إلى الحج فيقرأها على المشركين، فلما مضى بعض الطريق جاء جبرئيل (عليه السلام) إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) وقال له: إن السورة لايبلغها إلا أنت أو رجل من أهل بيتك، فأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) علياً أن يخرج ويأخذها من أبي بكر، فرجع أبو بكر وذهب علي (عليه السلام) وقرأ السورة على الكفار في منى ثلاثة أيام، يوم العاشر من ذي الحجة، والحادي عشر، والثاني عشر منه، فكان يخرط سيفه ويقول: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يدخل البيت إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كانت بينه وبين رسول الله مدة فإن أجله إلى أربعة أشهر[١٥].

ولما أعلم الكفار بذلك، أظهروا تبرؤهم، فلم تبق صلة بينهم، وقد كان هذا العمل خطراً، حيث أن الكثرة الغالبة من الحجاج كانوا مشركين، فالاصطدام بهم بهذه الصورة الخشنة كان مظنة الإيقاع بالإمام (عليه السلام) لكن الله سبحانه عصمه عن ذلك، وقد كان نزول سورة براءة في السنة التاسعة من الهجرة، بعد فتح مكة، وفي العام القابل حج الرسول (صلى الله عليه وآله) حجة الوداع، ولما أن رجع عن الحج نصب علياً خليفة في غدير خم، وقبض في شهر صفر من تلك السنة.

[٣] {وأذان من الله ورسوله} أي إعلام منهما {إلى الناس} من المسلمين والمشركين {يوم الحج الأكبر} وهو يوم النحر، مقابل الحج الأصغر الذي هو العمرة، وسمي بالأكبر لأن أعماله أكثر، وإنما كان يوم النحر يوم الحج الأكبر لأن طواف الحج الذي هو أعظم أعماله يأتي فيه، ويحتمل أن يراد بذلك جميع أيام الحج، كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، ويراد به الحين والزمان الذي وقعت فيه هذه الحوادث. والمعنى أن الله ورسوله يُعلنان في هذا الوقت {أن الله بريء من المشركين} فلا علاقة له بهم، ولا عهد له معهم {ورسوله} أيضاً بريء منهم. وقد تقدم أن ذكره سبحانه هو الأصل، وذكر الرسول

---

(١٤) سورة التوبة: ٤.

(١٥) راجع بحار الأنوار: ج٢١، ص٢٦٦.

للاحترام ولأنه المنفّذ المواجه {فإن تبتم} أي رجعتم عن الشرك أيها المشركون {فهو خير لكم} في دنياكم حيث تسودون وتبقون مرفهين {وإن توليتم} أي أعرضتم عن الإيمان وبقيتم على الشرك {فاعلموا} أنكم في معرض عقاب الله وعذابه و {أنكم غير معجزي الله} أي لاتتمكنون من أن تعجزوه وتغلبوه، بل هو ينتصر عليكم ويهلككم ويخزيكم {وبشر} يا رسول الله {الذين كفروا بعذاب أليم} في الدنيا والآخرة. وتسمية الإنذار بشارة، من باب الاستهزاء، وذكر الضد مكان الضد، كما يسمى الزنجي: كافوراً، والأعمى: بصيراً، ولبيان أن العذاب يأتي مكان انتظار البشارة، فإن الكفار كانوا ينتظرون بأعمالهم عاقبة حسنة فإذا بها عذاب ونكال.

[٤] ثم استثنى سبحانه من براءته من المشركين وانتهاء معاهدتهم إلى أربعة أشهر، المعاهدين الذين وفوا بالعهد {إلا الذين عاهدتم} أيها المسلمون معهم {من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً} بل بقوا أوفياء على عهودهم {ولم يظاهروا عليكم أحداً} أي لم ينضموا إلى أعدائكم حتى يكونوا ظهيراً لهم عليكم {فأتموا} أيها المسلمون {إليهم} وإنما قال: «إليهم» كأن الإتمام يبتدئ من المسلمين وينتهي إلى أولئك {عهدهم إلى مدتهم} المضروبة لهم، فهم في مدة عهدهم آمنون لا يُحارَبون {إن الله يحب المتقين} الذين يتقون نقض العهد.

وقد كان جماعة من المشركين كذلك بقوا أوفياء على عهودهم كبني كنانة وبني حمزة، وقد كانت مدتهم تسعة أشهر، وكأهل هجر والبحرين وإيلة ودومة الجندل الذين كانت للرسول (صلى الله عليه وآله) معهم مصالحات.

[٥] {فإذا انسلخ الأشهر الحرم} أي مضت الأشهر الأربعة التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، والتي تنتهي بانتهاء عشرة أيام من ربيع الأول. ومعنى الانسلاخ: المضي، كما ينسلخ الجلد عن الشاة، فتبدو عارية ظاهرة، تشبيهاً للأشهر الحرم بالجلد الواقي لما بعدها من الأيام {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} فقد رُفعت الهدنة والعهد بما نقضوا من العهود. وليس المراد قتل كل فرد فرد، بل المراد وقوع المقاتلة، وأنهم في حكم المحارب، والمراد من «حيث وجدتموهم» أينما كانوا في حلٍّ أو في حرم، فإن الحرم محترم لمن احترمه، أما من لم يحترمه فليس بمحترم فيه {وخذوهم} أي خذوا من تمكنتم من أخذه، والأخذ للقتل أو الحبس أو الاسترقاق {واحصروهم} امنعوهم عن التصرف في حوائجهم و {اقعدوا لهم كل مرصد} كل محل للرصد والتطلع كقلل الجبال، والمضايق، وقوارع الطرق {فإن تابوا} عن كفرهم {وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة} أي التزموا بشرائط الإسلام، فإن إظهار مجرد الإيمان بدون الرضوخ للأحكام والاستعداد لامتثال أوامر الله والرسول، لا يُعدّ إلا لقلقة لسان {فخلوا سبيلهم} دعوهم يتصرفون في البلاد، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لأنهم أصبحوا من زمرتهم {إن الله غفور} لذنوبهم {رحيم} بهم يتفضّل عليهم بلطفه.

[٦] {وإن أحد من المشركين} الذي أمرتك بقتاله بعد انسلاخ الأشهر الحرم {استجارك} أي استأمنك، بأن طلب الأمان منك ليسمع دعوتك {فأجره} وأعطه الأمان {حتى يسمع كلام الله} وحيث أن كلام الرسول هو الوحي، كما قال سبحانه: (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[١٦]، كان كلامه (صلى الله عليه وآله) كلام الله تعالى {ثم} إن أسلم، كان له ما للمسلمين، وإن لم يُسلم ف {أبلغه مأمنه} أي أرجعه إلى محل أمنه، بأن يكون في حمايتك حتى يبلغ مكانه، لئلاّ يُغدر به في الطريق، وهذا كان كافراً حربياً، بعد عدم قبوله الإسلام إلاّ أنه حيث جاء لغرض صحيح، لايجوز قتله حتى يبلغ مأمنه {ذلك} الأمان لمريد فهم الإسلام {ب} سبب {أنهم قوم لا يعلمون} حقيقة الإسلام، فهذا الأمان سبب لدخول بعضهم في الإسلام.

(١٦) سورة النجم: ٥.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)

[٧] ثم بيّن سبحانه وجه تبرؤ الرسول من العهود بعد أربعة أشهر بقوله: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله} وقد غدروا وظاهروا الأعداء، وهل العهد يبقى مع ذلك؟ وقد كان ضرب المدة أربعة أشهر من سماحة الإسلام، وإلاّ فقد استحق الغادرون أن يُجهز عليهم فور غدرهم {إلاّ الذين عاهدتم} معهم {عند المسجد الحرام} فإنهم لم يغدروا، وكان استثناؤهم وحدهم دون سواهم، وقد كانوا كثيرين ـ كما عرفت ـ لأنهم «الفرد» الظاهر السابق إلى الذهن، والمراد بأولئك: هم قبائل بكر، بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو حمزة، فقد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ـ اليوم الذي عاهد رسول الله قريش قرب الحرم ـ وهؤلاء لم ينقضوا العهد، فأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) بإتمام مدتهم وفاءً للعهد {فما استقاموا لكم} أي مدة استقامة المشركين الذين لم ينقضوا العهد معكم، بأن لم تظهر منهم أمارات الغدر والخيانة {فاستقيموا لهم} وابقوا على عهدكم معهم {إن الله يحب المتقين} الذين يتقون نقض العهد وخلف الوعد.

[٨] {كيف} يكون للمشركين عهد، وتتورعون عن قتالهم {و} الحال أنهم {إن يظهروا} ويظفروا {عليكم} ويتمكّنوا منكم {لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة} أي لا يحفظوا ولا يرعوا فيكم قرابةً ولا عهداً، فإن «الإل» بمعنى القرابة، و«الذمة» بمعنى العهد، أو «الإل» بمعنى الحلف، أي تذهب المحالفات والعهود بمجرد أن يتمكن هؤلاء منكم {يرضونكم} هؤلاء المعاهدون {بأفواههم} فيتكلمون بكلام الموالين {وتأبى قلوبهم} حبكم وولاءكم، بل هي مليئة بغضاً وعداوةً {وأكثرهم فاسقون} خارجون عن العهود والمواثيق، فإن الفسق بمعنى الخروج عن الحق.

[٩] {اشتروا} هؤلاء الناكثون {بـ} مقابل {آيات الله} التي كان المفروض الإيمان بها {ثمناً قليلاً} فقد أعرضوا عن الدين في مقابل دنيا قليلة زائلة تحفظوا عليها {فصدوا} أي منعوا الناس {عن سبيله} أي سبيل الله تعالى {إنهم ساء ما كانوا يعملون} أي بئس عملهم ذلك.

[١٠] {لا يرقبون} لا يراعون ولا يحفظون {في مؤمن إلاًّ ولا ذمة} وهذا تأكيد لما سبق، أي أنهم لا يراعون قرابة المؤمنين ولا عهدهم، بل إن ظفروا بهم قتلوهم وانتقموا منهم {وأولئك} الكفار الناقضون للعهد {هم المعتدون} المجاوزون للحد، حيث لم يراقبوا العهود.

[١١] {فإن تابوا} عن الكفر وقبلوا الإسلام {و} خضعوا لأوامره بأن {أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة} بالنسبة إلى من تمكن منها {ف} هم {إخوانكم في الدين} أيها المسلمون، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم {ونفصّل الآيات} نميّزها ونبيّنها {لقوم يعلمون} أي لأهل العلم، فإنهم هم الذين يستفيدون منها لا الجهلة الذين لا يعرفون شيئاً.

[١٢] {وإن نكثوا} أي نقضوا {أيمانهم} أي عهودهم والأيمان التي حلفوها بعدم الاعتداء عليكم {من بعد عهدهم} معكم، وهذا كالتذكير ببشاعة عملهم، وإلا فكل نكث يكون بعد العهد {وطعنوا في دينكم} أي أخذوا يقدحون ويعيبون دينكم {فقاتلوا} أيها المسلمون {أئمة الكفر} «أئمة» جمع إمام، وهم قادة الكافرين، وإنما خصّهم بالذكر لأنهم المضلون لأتباعهم الذين إن استُأصلوا ذهبت شوكة الكافرين.

ويستفاد من الآية: أن الأولى قصد مراكز انتشار الكفر ومعادنه {إنهم لا أيمان لهم} أي أن أئمة الكفر لا يحفظون العهود والأيمان ولا وفاء لهم بها {لعلهم ينتهون} أي قاتلوهم لكي ينتهوا عن الكفر.

[١٣] ثم حثّ سبحانه المؤمنين بقتالهم بقوله: {ألا تقاتلون} أي هلاّ تقاتلون {قوماً نكثوا أيمانهم} ونقضوها، وهذا لا ينافي قوله: «لا أيمان لهم» فإن معنى ذلك: أنهم لا يحفظوها، ومعنى هذا أنهم عقدوها. والحاصل أنهم عقدوا الأيمان ولكن نقضوها {وهمّوا بإخراج الرسول} حين تآمروا في دار الندوة لإخراجه (صلى الله عليه وآله) من مكة. ولعل ذكر ذلك مع أنهم همّوا بقتله أيضاً، أوقع في النفس، وأبلغ في التحريض والحث، لأن الإخراج الذي قصده المتآمرون كان أسوأ من القتل، فإنهم قصدوا إخراجه حتى يموت في بيداء خالية من الماء والطعام، أو المراد بالإخراج: إخراجه من بين أظهرهم بالإثبات أو القتل أو النفي {وهم بدءوكم أول مرة} فإنهم ابتدءوا بقتال المسلمين وإيذائهم والصد عن سبيل الله.

إن كل هذه الأمور الثلاثة مما يبيح لكم قتالهم، فلماذا لا تقاتلونهم أيها المسلمون؟ {أتخشونهم} أي هل تخشون هؤلاء الكفار أن تصيبكم منهم أذية؟ {فالله أحق أن تخشوه} فإنكم إن تركتم قتال هؤلاء عذّبكم الله سبحانه، فهو أحق بالخشية من هؤلاء {إن كنتم مؤمنين} بالله وبما جاء به الرسول، أما غير المؤمن فلا يعتقد بعقاب الله سبحانه ولذا لا يخشاه.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

[١٤] {قاتلوهم} أي قاتلوا الكفار أيها المسلمون، إن تقاتلوهم {يعذّبهم الله بأيديكم} بالقتل والأسر {ويُخزهم} أي يُذلهم ويحطّم شوكتهم {وينصركم عليهم} حتى تكون كلمتكم هي العليا وتكون الغلبة لكم {ويشف صدور قوم مؤمنين} فإن صدور المؤمنين كانت ممتلئة غيظاً وكمداً، وكل من انتصر شفي صدره وذهبت فرحة النصر بغيظه.

[١٥] {ويذهب} الله {غيظ قلوبهم} الذي تجمع فيها من كثرة ما رأوا من الاضطهاد والظلم {ويتوب الله على من يشاء} من هؤلاء الكفار إذا آمنوا مع فرط تعدّيهم وعتوّهم، فإن الإسلام يجبّ ما قبله {والله عليم} بالمصلحة حيث يأمركم بقتال هؤلاء، فلا يأمر اعتباطاً {حكيم} فأمره عن حكمة ودراية.

[١٦] {أم حسبتم أن تتركوا} «أم» أداة استفهام وعطف، فقد عطفت هذه الجملة على قوله: «ألا تقاتلون» أي: هل ظننتم أيها المسلمون أن تتركوا آمنين في دياركم من دون أن تُكلّفوا الجهاد في سبيل الله سبحانه؟ {ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم} «لما» حرف نفي مع تقريب وقوع الفعل الذي لم يقع بعد، أي لم يتعلق علم الله سبحانه بالمجاهدين، فإنه لم يصدر منكم جهاد، حتى يكون علم الله واقعاً خارجياً، فإن العلم إنما يكون خارجياً، إذا وجد متعلقه، فإذا علم الإنسان أن زيداً سيجيء غداً، يقال: لما يعلم فلان مجيء زيد، بمعنى أنه لم يقع متعلق علمه {و} لما يعلم الله الذين {لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة} «الوليجة» هي البطانة التي يخفي الإنسان لديها أسراره، كأنه يلج فيها بسره، فإن حبّ الشخص لا يُمتحن في أيام الرخاء، وإنما يُمتحن في أيام الشدة والبلاء، فالصديق لا يتّخذ غير صديقه وليجة، بخلاف ضعيف الصداقة.

ولذا نرى أن كثيراً من المسلمين اتخذوا الولائج، وبدت ضمائرهم السيئة عند الجهاد {والله خبير} أي عليم {بما تعملون} أيها المسلمون. والحاصل أنه لا بد من امتحانكم أيها المسلمون بالجهاد ليتبين المجاهد منكم من غيره، ويتبين الذي يُخلص في النية لله والرسول، من غيره.

[١٧] روي أن المسلمين عيّروا أسرى بدر، ووبّخ علي (عليه السلام) العباس بن عبد المطلب بقتال رسول الله وقطيعة الرحم. فقال العباس: تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا. فقالوا: أوَلكم محاسن؟ قالوا: نعم، إنا نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني[١٧]. فنزلت هذه الآيات: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله} سواء المسجد الحرام أو غيره حال كونهم {شاهدين على أنفسهم بالكفر} أي حال شهادتهم بكفر أنفسهم، فكيف يجتمع الإذعان لله والكفر بآياته، إنك إن أهنت شخصاً وعمّرت داره كان تعمير داره سيئة لا حسنة، فكيف يمكن الافتخار بأنه من المحاسن؟ ومعنى «ما كان»: أنه ليس لهم ذلك. ولعلّ وجه الارتباط أنه لما نُهي المشركون عن زيارة البيت بيّن سبحانه السبب، بأن الشرك وعمارة المسجد ـ مادياً ومعنوياً ـ لايجتمعان.

{أولئك} الذين كفروا {حبطت أعمالهم} أي بطلت فلا قيمة لحسناتهم التي يزعمون أنها حسنة، فإن الحسنة لا تقبل إلاّ مع الإسلام والإخلاص {وفي النار هم خالدون} أبد الآبدين، بمعنى أنهم لو ماتوا كافرين لم تنفعهم الحسنة في نجاتهم من النار.

[١٨] {إنما يعمر مساجد الله} بناءها وإقامة العبادة فيها {من آمن بالله واليوم الآخر} بأن أقرّ بالوحدانية واعترف بيوم القيامة، إنه هو الذي يجوز له تعمير المسجد، وهو الذي يُقبل منه {وأقام الصلاة} بمعنى التزم بشرائع الإسلام، فإن الاعتراف اللفظي بدون الخضوع والانصياع لأوامر الإسلام لا يعدّ إلا لقلقة لسان {وآتى الزكاة} بالنسبة إلى من وجدها {ولم يخش إلا الله} أي خشية من نوع الخشية التوحيدية، فإن المشرك يخشى من إلهين، والمؤمن يخشى من إله واحد. وليس النفي مطلقاً كما هو واضح، قال سبحانه بالنسبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) (وَتَخْشَى النَّاسَ)[١٨]، {فعسى أولئك} أي لعلّ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والتزموا بشرائطه {أن يكونوا من المهتدين} أي في زمرتهم، وإنما قال «فعسى» لأن المرء لا يعرف مستقبله، فربما كان مؤمناً عاملاً، ثم ينقلب كافراً، فلا يكون من المهتدين ـ بما للكلمة من معنى ـ .

[١٩] {أجعلتم سقاية الحاج} «السقاية» مصدر سقي الماء، و«الحاج» بمعنى القاصد إلى مكة، بعد ما كان في اللغة بمعنى مطلق القصد {وعمارة المسجد الحرام} تعميراً بالبناء، أو بالعبادة، والأول هنا أقرب {كمن آمن} الاستفهام إنكاري، وفي الكلام حذف تقديره «أهل سقاية» أي ليس الساقي العامر للمسجد الحرام كالمؤمن {بالله واليوم الآخر} وذلك لأن الإيمان هو أصل الفضائل، أما

---

(١٧) بحار الأنوار: ج٤١، ص٦٣.

(١٨) سورة الأحزاب: ٣٨.

السقاية والعمارة فهما أمران شكليان، إذا لم تنضم إليهما روح الإيمان لن ينفعا شيئاً {وجاهد في سبيل الله} لإعلاء كلمته سبحانه {لا يستوون عند الله} أولئك وهؤلاء {والله لا يهدي القوم الظالمين} فإن من ظلم نفسه بالكفر لا يكون مهدياً، فلا يكون عمله عن اهتداء حتى يترتب عليه فضل.

روي أن العباس وشيبة أنهما تفاخرا، فمر بهما أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أُوتيت من الفضل ما لم يُؤت أحد، سقاية الحاج. وقال شيبة: أُوتيت عمارة المسجد الحرام. فقال علي (عليه السلام): استحييت لكما، فقد أُوتيت على صغري ما لم تُؤتيا. فقالا: وما أُوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله، فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتى دخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به علي؟ فقال: ادعوا لي علياً فدعي له، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله): ما حملك على ما استقبلت به عمك فقال: يا رسول الله صدمته بالحق فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض. فنزل جبرائيل (عليه السلام) فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم «أجعلتم سقاية الحاج..». فقال العباس: إنا قد رضينا «ثلاث مرات»[١٩].

وقد كانت سقاية الحاج عبارة عن تهيئة دلاء وأواني قبل الموسم فتُملأ ماءً من بئر زمزم، فإذا جاء الحجاج سُقوا منها، حيث أن البئر كانت لا تتحمل اجتماع خلق كثير عليها.

[٢٠] {الذين آمنوا} بالله وبرسوله {وهاجروا} من مكة إلى المدينة لأجل الإسلام {وجاهدوا في سبيل الله} بأن تحملوا المشاق {بأموالهم وأنفسهم} فبذلوا المال والنفس لإعلاء كلمة الله سبحانه {أعظم درجة عند الله} من الذين لم يفعلوا ذلك، وإن سقوا الحجيج وعمروا المسجد {وأولئك هم الفائزون} الظافرون المفلحون.

---

(١٩) بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٩.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)

[٢١] {يبشرهم ربهم برحمة منه} أي من عنده. والإتيان بكلمة «منه» لتعظيم قدر البشارة {ورضوان} أي رضاه سبحانه عنهم، وهو أعظم بشارة، فإن الإنسان إذا علم أن الملك ـ مثلاً ـ راض عنه كان مرتاح الضمير مسرور الخاطر، أما إذا علم أنه غاضب عليه كان بالعكس، وإن أغدق عليه في العطاء {وجنات لهم فيها} أي في تلك الجنات {نعيم مقيم} دائم لا يزول ولا يتحول.

[٢٢] {خالدين فيها أبداً} فالجنات والنعيم كلاهما خالدان إلى ما لا نهاية {إن الله عنده أجر عظيم} فليرغب الراغبون فيه.

[٢٣] وحيث ذكر سبحانه وجوب الجهاد في سبيله، والهجرة من دار الكفر لأجله، بيّن أنه يجب أن يتجرّد الإنسان من أقرب العلاقات إلى نفسه لأجله تعالى فقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء} بأن تتولّونهم ولاءً صادراً من الأعماق، وإن استُحبّت معاشرتهم في الظاهر لقوله سبحانه: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)[٢٠]، {إن استحبوا الكفر على الإيمان} أي آثروا الكفر واختاروه {ومن يتولّهم} أي الآباء والإخوان {منكم} فيقدّم ولايتهم على ولاية الله والرسول والمؤمنين {فأولئك هم الظالمون} الذين ظلموا أنفسهم حيث أوجبوا لها خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وفي بعض الأحاديث: إن الآية وردت في «حاطب بن أبي بلتعة»[٢١] فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما أراد فتح مكة، أمر أصحابه بكتمان الأمر حتى يفاجئ المسلمون الكفار ولا تراق الدماء، فكتب حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بخبر الرسول (صلى الله عليه وآله) وأطلع الله رسوله بالخبر، فوبخ حاطباً ثم عفا عنه، وأرجع الرسول (صلى الله عليه وآله) الذي كان بيده الكتاب، فكان كما أراد الرسول

---

(٢٠) سورة لقمان: ١٦.

(٢١) راجع مجمع البيان: ج٥، ص٣٠.

من عدم وصول الخبر إليهم، وقد قال حاطب معتذراً أن له أهلاً في مكة فخاف أن تكون الدائرة على المسلمين، فيكون له يد على الكفار، ويسلُم أهلُه من عقابهم وعذابهم.

[٢٤] ثم بيّن سبحانه ميزان الإيمان الصحيح، وأنه لا يكون إلا بأن يرجّح المؤمن كفّة الإيمان على جميع الشؤون والاعتبارات {قل} يا رسول الله للمسلمين: {إن كان آباؤكم وأبناؤكم} واللفظان يشملان الأجداد والأحفاد {وإخوانكم} الأعم من الأخوات {وأزواجكم} اللاتي عقدتم عليهن {وعشيرتكم} أقاربكم غير مَن ذُكروا، كالأعمام والأخوال ومن أشبههما {وأموال اقترفتموها} جمعتموها وكسبتموها {وتجارة تخشون كسادها} تخشون أن تكسد ولا تُدار، إن اشتغلتم بطاعة الله سبحانه {ومساكن ترضونها} بأن تحبون المقام فيها، سواء كانت بلاداً أو بيوتاً {أحب إليكم} وأقرب إلى نفوسكم {من الله ورسوله} من طاعته وطاعة رسوله {و} أحب إليكم من {جهاد في سبيله} أي سبيل الله، فإذا دار الأمر بين ترجيح رضاه سبحانه أو رضا رسوله وبين ذلك المحبوب لديكم من مال وقرابة قدمتموه عليها {فتربصوا} انتظروا. وهذا تهديد، أي انتظروا العقاب فإنكم لستم من الله في شيء. وكيف يدّعي الإنسان الإيمان وهو يقدّم تلك الأمور على أمر الله تعالى {حتى يأتي الله بأمره} فإنكم لا خير فيكم، وإنما يأتي بأمر الله غيركم، كما يقال: «إن كنت لا تفعل هذا فانتظر حتى يأتي غيرك ليفعله»، فإن الله سبحانه غني عنكم فهو القادر على أن ينفذ أوامره بواسطة أناس غيركم {والله لا يهدي القوم الفاسقين} فإن من خرج عن طاعة الله بالفسق، بعد العلم والعرفان، يُطبع على قلبه فلا يلطف به سبحانه ألطافه الخاصة.

[٢٥] ثم بيّن سبحانه مصداقاً من مصاديق إتيان الله بأمره، بعد ما اختار المسلمون الحياة، وفرّوا من الله والرسول، في وقعة «حنين» التي كانت قريبة إلى مشاعرهم وأفكارهم عند نزول هذه السورة. وقصة هذه الغزوة باختصار: أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما فتح مكة خاف الكفار الذين كانوا مبثوثين في الجزيرة أن يأتي الرسول (صلى الله عليه وآله) على آخرهم فاجتمع هناك جموع كثيرة من هوازن وغيرها ربما بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ومروا حتى بلغوا «أوطاس» يريدون قتال الرسول (صلى الله عليه وآله) فبلغه (صلى الله عليه وآله) خبر اجتماعهم هناك، فجمع القبائل ورغّبهم في الجهاد ووعدهم النصر وأن الله وعده أن يغنمهم أموالهم ونساءهم وذراريهم، فرغب الناس وخرجوا كل قبيلة وفئة تحت راية، وعقد اللواء الأكبر للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وخرج (صلى الله عليه وآله) في اثني عشر ألف رجل. فلمّا صلّى الغداة انحدر في وادي حنين والجو لا زال مظلماً، وقد كانت هوازن قد سبقوا المسلمين من الليل وكمنوا في أطراف الجبال، وحنين واد كثير الانحدار، فلما انحدر جيش الرسول (صلى الله عليه وآله) في الوادي، وقد كان أول من انحدر بنو سليم معهم خالد بن الوليد، وكانوا غافلين عن اختفاء هوازن، وإذا بهم يُرشقون بالسهام كقطر المطر من كل جانب دون أن يروا أحداً وظهرت كتائب هوازن من كل ناحية، فانهزم بنو سليم، وكسرت بانكسارهم

سائر جيوش الرسول (صلى الله عليه وآله) وفروا صعداً في الجبال والوديان، وبقي الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين وجماعة يعدون بالأصابع من أولاد العباس وغيرهم.

وأخذ الرسول (صلى الله عليه وآله) ينادي: يا معشر الأنصار إليّ وأنا رسول الله. وقد التفت كتائب هوازن به يريدون قتله والإمام يضرب بالسيف يمنة ويسرة، فلم يبق من المسلمين أحد فقال (صلى الله عليه وآله) للعباس: اصعد هذا الطرب وناد: «يا أصحاب سورة البقرة» و«يا أصحاب بيعة الشجرة» إلى أين تفرون هذا رسول الله؟ وقد كان العباس رفيع الصوت، ثم رفع يده فقال (صلى الله عليه وآله): اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، فنزل جبرائيل فقال: دعوت بما دعا به موسى حيث فلق الله له البحر ونجاه من فرعون، ثم أخذ كفاً من حصى فرماه في وجوه المشركين قائلاً: «شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تُعبد، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد»، فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم يقولون: لبيك، ومروا برسول الله واستحيوا أن يرجعوا إليه. فالتحقوا بالراية ونزل النصر من السماء وانهزمت هوازن وكانوا يسمعون قعقعة السلاح في الجو، ولما فر الكفار غنم المسلمون غنائم كثيرة من أموالهم ونسائهم وذراريهم، وقسمها الرسول (صلى الله عليه وآله)[٢٢].

أقول: المراد بـ«أصحاب سورة البقرة» إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى)[٢٣]، الذين طلبوا جهاد الكفار ثم «لَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا»[٢٤] يعني: أنكم أيها المسلمون صرتم كأولئك، والمراد بـ«أصحاب بيعة الشجرة» أن الرسول (صلى الله عليه وآله) حين صلح الحديبية اتكأ على شجرة وبايع المسلمين من جديد، ليمتثلوا أوامره، كأنه ما كانت كما قال سبحانه: (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)[٢٥].

{لقد نصركم الله} أيها المسلمون {في مواطن كثيرة} في بعض الأخبار أنها كانت ثمانين {ويوم حنين} أي: ونصركم في يوم حنين، وتخصيصه بالذكر لأنه لولا نصرة الله سبحانه لم يكن لهم نصر حسب الظاهر بعد فرارهم وانهزامهم {إذ أعجبتكم كثرتكم} فإنه لم يتفق لجيش المسلمين أن يكونوا اثني عشر ألفاً قبل ذلك، وقد قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، لما رأوا من كثرتهم المدهشة في الجيش {فلم تغن} الكثرة {عنكم شيئاً} أي لم تفدكم الكثرة {وضاقت عليكم الأرض بما رحبت} أي برحبها وسعتها، و«الباء» بمعنى مع، أي مع كونها وسيعة فسيحة ضاقت عليكم، فإن الإنسان إذا خاف، يرى في نفسه ضيق الأرض، بالإضافة إلى أنهم لم يجدوا موضعاً للفرار، لاحتمال وجود العدو في كل مكان

---

(٢٢) بحار الأنوار: ج٢١، ص١٤٩.

(٢٣) سورة البقرة: ٢٤٧.

(٢٤) سورة البقرة: ٢٤٧.

(٢٥) سورة االفتح: ١٩.

{ثم وليتم مدبرين} أي انهزمتم من عدوكم، وأعطيتم أدباركم للعدو، وقد كان الخطأ من المسلمين أنهم لم يثبتوا أول الأمر، فإن الثبات أول الأمر خليق بأن يكشف النازلة، كما أنهم أخطأوا حين اغتروا بكثرتهم، فإن الإنسان إذا رأى كثرة من معه تقوى فيه روح الاتكالية، وذلك خليق بانهزامه. ثم إن مقدمة الجيش لم تتخذ احتياطاتها اللازمة، فإن دخول مثل هذا الموضع مما يحيط به الجبال يحتاج إلى إرسال بعض القوات الاستطلاعية.

[٢٦] {ثم أنزل الله سكينته على رسوله} أي السكون النفسي الذي يزول الخوف معه، فإن أقوى أسباب الهزيمة في كل ميدان، تزلزل النفس وعدم اطمئنانها بالنصر، أما إذا قويت النفس على تحمّل المكروه كان الإنسان خليقاً بالنصر {وعلى المؤمنين} الذين بقوا معه ولم ينهزموا. فقد بقي مع الرسول تسعة من بني هاشم أولهم أمير المؤمنين (عليه السلام) كما بقي ابن أم أيمن وقد قتل في ذلك اليوم، أو المراد: المؤمنين حين رجوعهم إلى الرسول، فإن الجيش الذي يفر إذا فكر في العاقبة تقوى نفسه بإذن الله سبحانه {وأنزل جنوداً لم تروها} فقد أنزل الله سبحانه أفواجاً من الملائكة لنصرة المؤمنين. وهذا ليس بغريب، فقد وعد سبحانه بنصرة الملائكة لكل من استقام فكيف بالنبي (صلى الله عليه وآله) قال سبحانه: (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ)[٢٦].

وقد ورد: أن رجلاً من المشركين قال للمؤمنين، وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البلق والرجال عليهم الثياب البيض، فإنما كان قتلنا بأيديهم وما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة. قالوا: تلك الملائكة {وعذب} الله {الذين كفروا} بالقتل والأسر {وذلك} العذاب {جزاء الكافرين} الذين يكفرون بالله وآياته.

---

(٢٦) سورة فصلت: ٣١.

ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآَخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

[٢٧] {ثم} بعد تمام الأمر {يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء} من الكفار إذا أسلموا، وذكر «على من يشاء» لإفادة أن التوبة ليست واجبة، أو المراد: من يشاء من المنهزمين، فإن الفرار من الزحف كبيرة موبقة، وقد شاء سبحانه أن يتوب على المؤمنين دون المنافقين {والله غفور} يستر الذنوب {رحيم} يتفضّل بالرحمة عليهم.

[٢٨] {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس} النجاسة في الشريعة هي القذارة التي توجب الغسل للشيء الذي يباشره برطوبة، وهذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول والغائط، وقد تكون لأضرار معنوية كالكافر، فإنه وإن كان نظيف الجسم إلا أن معتقده الباطل أوجب الحكم بنجاسته. وذلك خير وقاية للمسلمين من أن يتلوثوا بعقيدته، فإنهم إذا عرفوه نجساً حتى أنه يجب الاجتناب عنه في المأكل والملبس وأنه مهما باشر شيئاً برطوبة تنجس فوراً منه، اجتنبوا عنه، فلا يتعدّى إليهم ما انطوى عليه من العقيدة الباطلة، وهو ـ بدوره ـ إذ يعرف أنه عند المسلمين نجسٌ لا بد وأن يسأل عن السبب ويريد إزالة هذه الوصمة، ولدى تحقيق ذلك تظهر له خرافة معتقده مما يدعوه أن يتركها ويعتقد بالعقيدة الصحيحة.

وهناك بعض المتفلسفين يقولون: كيف يحكم بنجاسة إنسان، ولزوم الاجتناب عنه، لمجرد انحراف عقيدة، وهذا مناف لحرية الآراء؟

والجواب: إنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجذام ونحوه، لمجرد انحراف مزاج، وهذا مناف لكرامة الإنسان، فإذا كان الخوف على الجسم يبيح الاجتناب فالخوف على الروح أولى بالإباحة.

{فلا يقربوا المسجد الحرام} والمراد: عدم دخوله، والمسجد الحرام من باب المورد، فإن علياً (عليه السلام) أُمر بحكم الرسول (صلى الله عليه وآله) أن ينادي: «لا يحج بعد هذا العام مشرك»[٢٧].

وإن قيل: فكيف دخل وفد نجران مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) ؟

نقول: إنه قبل نزول هذا الحكم، فإن الأحكام نزلت تدريجاً، أما القول بأن النصارى ليسوا بمشركين. فهو خلاف قوله تعالى: (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٢٨]، وقوله: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ)[٢٩]، وقوله: (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ)[٣٠].

{بعد عامهم هذا} في السنين المقبلة {وإن خفتم عيلة} أي فقراً، فقد كان المنع عن المشركين يضر باقتصاد أهل مكة حيث أن كثيراً من وارداتهم كانت من الحجاج المشركين {فسوف يغنيكم الله من فضله} وقد وفى سبحانه بما وعد، فقد أسلم أهل اليمن وحملوا إليهم الميرة والطعام عوض المشركين، كما أسلم أهل الآفاق وحجوا وأغنوا أهل مكة أكثر من إغناء المشركين. أما هذه الأيام فإن آبار الذهب الأسود قد أوصلت مستواهم الاقتصادي إلى علوّ مدهش {إن شاء} للدلالة على أن الأمور بيده سبحانه، ولسوقهم إلى رجائه والسؤال منه والخضوع والضراعة إليه.

{إن الله عليم} بالمصالح، فإن منعه عن حج المشركين إنما هو عن علم {حكيم} يضع الأمور في مواضعها ويأمر بها حسب المصالح الكامنة، وإن لم يعرف الناس تلك المصالح فوراً.

[٢٩] {قاتلوا} أيها المسلمون {الذين لا يؤمنون بالله} إيماناً صحيحاً، وإن آمنوا به إيمان شرك ونحوه {ولا باليوم الآخر} إيماناً صحيحاً، وإن آمنوا به إيماناً منحرفاً، كأهل الكتاب الذين قالوا: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً)[٣١]، {ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله} المراد بالرسول: إما الأعم، فإنهم لا يحرّمون المحرمات التي أتى بها موسى وعيسى (عليه السلام)، أو الأخص يعني محمداً (صلى الله عليه وآله) {ولا يدينون دين الحق} أي لا يتخذونه ديناً، والمراد به الإسلام {من الذين أوتوا الكتاب} وصف لـ«الذين لا يؤمنون» {حتى يُعطوا الجزية} هي «فعلة» من «جزى يجزي» مثل «العقدة» و«الجلسة»، وهي عطية مخصوصة، كأنها جزاء لهم على بقائهم على الكفر، أو جزاء للمسلمين عوض حمايتهم لهم، فإن الذمي في بلاد الإسلام يكون محترم المال والنفس موفّر الحرمة والكرامة {عن يد} أي يسلمونها بأيديهم، كما يقال: «كلمته وجهاً بوجه» {وهم صاغرون} أي أذلاء من «الصغار».

---

(٢٧) وسائل الشيعة: ج١٣ ص٤٠٠.

(٢٨) سورة التوبة: ٣١.

(٢٩) سورة المائدة: ٧٤.

(٣٠) سورة المائدة: ١١٧.

(٣١) سورة البقرة: ٨١.

إن أهل الكتاب حيث انحرفت عقيدتهم حتى جعلوا الخرافة في معتقدهم، وحيث حرفوا كتبهم حتى نسبوا الزنا والكفر وشرب الخمر والقسوة وشبهها إلى أنبيائهم، وحيث هدموا نظم الله سبحانه ليجعلوا مكانها أنظمة مخترعة، استحق الإسلام أن يشعرهم بشيء من الذلة ليتركوا الباطل إلى الحق، فإن الإنسان لا يرضى أن يبقى ذليلاً، لكنه احترمهم حيث أقرّ بهم وسمح لهم بالبقاء تحت ظله، باحترام اسم الكتاب، وهذا الإذلال لا ينافي الحرية في شيء، أرأيت من ينحرف في سلوك أو أخلاق هل يستحق ما يستحقه المستقيم؟ وليس الميزان في تقييم الإنسان الذي يراعي جهتي المادة والروح واقعاً، هو النظر إلى صورته البشرية، بل الصورة والسيرة، فمن انحرفت سيرته لم تنفعه صورته.

فهرب بعض المفسرين ومن إليهم عن الحكم على طبق هذه الآية أو ما أشبهها خروج عن الواقع الإسلامي، كما هو خروج عن الموازين البشرية الرفيعة التي تجعل للروح قسطاً في تقييم الإنسان كما أن للبدن قسطاً.

[٣٠] ثم بيّن سبحانه طرفاً من أقوال أهل الكتاب وافتراءاتهم على الله سبحانه {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله} وبهذا الانحراف خرجوا عن زمرة الموحّدين، فإن الله لا يمكن أن يكون له ولد إذ ليس جسماً يلد، كما وصف تعالى نفسه بقوله: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[٣٢] {ذلك قولهم بأفواههم} إن ألسنتهم اخترعت هذا القول بلا استناد إلى كتاب منزل أو دليل مبين. و«أفواه» جمع «فوه»، بمعنى: الفم {يضاهئون} أي يشبه قول هؤلاء اليهود والنصارى، في هذه المقالة {قول الذين كفروا} الذين يجعلون لله شريكاً، فإن كلا القولين تشبيه لا يليق بجلال الله سبحانه، فإن من له شريك إنما هو كمن له ولد في أنه مخلوق ليس بإله، وإنما كان التشبيه شركاً لأن الشبيه يشارك شبهه في أمر جامع ويفترق عنه في أمور مميزة، وبذلك يكون مركباً، والمركب ليس بإله {من قبل} وهذا توبيخ لهم، فإن الأنبياء يأتون لقلع جذور الكفر فإذا ارتدت الأمة إلى مقالة الكفار الذين جاء الأنبياء لمحقهم، كانت مُعرضة عن الأنبياء، وتبيّن أن كلام الأنبياء لم يؤثر فيهم {قاتلهم الله} دعاء عليهم بالهلاك، فإن المفسد يُدعى عليه بالموت ليستريح الناس من شره {أنى يؤفكون} أي كيف يُصرفون عن الحق إلى الإفك الذي هو الكذب.

[٣١] ثم بيّن سبحانه سبباً آخر لكفرهم، أنهم أعطوا حق التشريع أي التحليل والتحريم إلى علمائهم، مع العلم أن هذا الحق خاص بالله سبحانه (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[٣٣]، {اتخذوا} أي اتخذ اليهود والنصارى {أحبارهم} جمع «حبر» وهو العالم {ورهبانهم} جمع «راهب» وهو العابد {أرباباً من دون الله} أي مع الله، فإن أخذ الغير يُعبّر عنه «من دون» وإن كان مع الأصل.

---

(٣٢) سورة الإخلاص: ٢-٥.

(٣٣) سورة المائدة: ٤٥.

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً..» حتى فرغ منها. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويُحلّون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم(٣٤).

أقول الشرك على أربعة أقسام: الشرك في ذات الله، والشرك في صفاته، والشرك في أفعاله، والشرك في أمره ونهيه. فمن قال: إن له شريكاً، أو أن صفاته لغيره، أو أن قسماً من الخَلق لسواه، أو أنه يحق الأمر والنهي لغيره، فهو مشرك.

{و} اتخذوا {المسيح ابن مريم} رباً من دون الله {وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً} لا شريك له، فقد كان أنبياؤهم يأمرونهم بذلك {لا إله إلا هو} أي ليس في الكون إله غيره {سبحانه} أي أنزهه تنزيهاً {عما يشركون} أي عن شركهم، وجعلهم لله شريكاً.

(٣٤) بحار الأنوار: ج٩، ص٩٨.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

[٣٢] ومن صفات هؤلاء أنهم {يريدون أن يطفئوا نور الله} القرآن الكريم أو أحكامه. وسمي نوراً لأنه كما يُهتدى بالنور في الظلمات، كذلك يُهتدى بالقرآن في دروب الحياة المظلمة، فإن النور الظاهر لنفسه المظهر لغيره، كذلك أحكام الله سبحانه وكتابه الحكيم، ومعنى إرادتهم إطفائه، أنهم يريدون أن ينطفئ فلا يضيء العالم به {بأفواههم} فكما يُطفأ النور بالفم بسبب النفخ، فإنهم يريدون إبطال كتاب الله بما يتقولون عليه {ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره} أي يمنع الله ذلك إلا أن يظهر أمره، وذلك بإظهار الكتاب والإسلام في جميع المجالات {ولو كره الكافرون} أي حتى مع كرههم وعدم إرادتهم.

[٣٣] وكيف يتمكن هؤلاء من إطفاء نور الإسلام والقرآن والحال أن الله سبحانه {هو الذي أرسل رسوله} أي محمداً (صلى الله عليه وآله) {بالهدى} أي مع الهداية والإرشاد، فإن الرسول حامل مشعل الهدى {و} بـ {دين الحق} الذي هو الإسلام {ليظهره على الدين كله} فيكون هو الدين الوحيد الذي له الغلبة والحجة على سائر الأديان.

وفي الأحاديث: إن تأويل هذه الآية عند خروج الإمام المهدي (عليه السلام) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تُملأ ظلماً وجوراً[٣٥].

ويكون عند ذلك الإسلام وحده دين العالم لادين سواه {ولو كره المشركون} بأن كرهوا إعلاء هذا الدين على سائر الأديان.

[٣٤] ثم بيّن سبحانه بعض الصفات الذميمة الأخرى لأهل الكتاب بقوله: {يا أيها الذين آمنوا} وجّه الكلام إليهم لأنهم الذين يصدّقون بذلك، أما سائر أهل الكتاب فإنهم يكذبون الخبر، وإن علموا به باطناً {إن كثيراً من الأحبار} وهم علماء أهل الكتاب {والرهبان} وهم عُبّادهم {ليأكلون

(٣٥) بحار الأنوار: ج٥١، ص٥٠.

أموال الناس بالباطل} المراد بـ«الأكل» التصرف، فإن معظم التصرف لما كان بالأكل غلب على سائر التصرفات بعلاقة الجزء والكل، والمراد بـ«الباطل» بالرشوة ونحوها مما لا يحق لهم أكل الأموال بتلك الصور {ويصدّون} أي يمنعون {عن سبيل الله} فلا يتركون الناس أن يُسلموا ويُؤمنوا بالرسول (صلى الله عليه وآله).

ثم إن الأحبار والرهبان يكنزون الذهب والفضة فليحذر المسلمون أن يكونوا مثلهم فيُجازوا بجزائهم {و} ذلك فإن {الذين يكنزون الذهب والفضة} أي يجمعونها ولا يؤدون حقوقهما ـ لا الكنز المصطلح ـ {ولا ينفقونها} أي الكنوز {في سبيل الله} كما أمر من إعطاء الزكاة والخمس {فبشرهم بعذاب أليم} أي مؤلم موجع، وأتى بالبشارة مكان الإنذار استهزاءً من استعمال الضد في ضده.

[٣٥] في {يوم} أي ذلك العذاب إنما هو في يوم {يحمى عليها} أي يوقد على تلك الكنوز، فإن الشيء إذا أريد انصهاره إما يوقد تحته أو يوقد فوقه {في نار جهنم} فهي في النار وتوقد عليها النار، حيث تنصهر تماماً {فتكوى بها} أي بتلك الكنوز المحماة {جباههم} جمع «جبهة» {وجنوبهم} جمع «جنب» {وظهورهم} جمع «ظهر»، وإنما خُصّصت هذه المواضع لأن الجبهة محل الوسم، والجنب محل الألم، والظهر محل الحدود. وقيل: لأن صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته وطوى عنه كشحه ـ أي جنبه ـ وولاّه ظهره.

ويقال لهم في حال الكي تعنيفاً وتوبيخاً: {هذا ما كنزتم لأنفسكم} هذا جزاؤه، حيث لم تنفقوها في سبيل الله {فذوقوا ما كنتم تكنزون} أي ذوقوا عقابه ووباله وعاقبته.

[٣٦] ولما أوجب سبحانه قتال الكفار وأهل الكتاب الذين انحرفوا، بيّن أنه لا يحل القتال في الأشهر الحرم التي هي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. فقد قرّر الله سبحانه السلام في هذه الأشهر ليستريح الناس فيها وليكونوا في أمن، كما قرر السلام في الحرم ليكون مكاناً للسلام، وقد قدم على ذلك مقدمة هي عدة الشهور، وأنها مرتبطة بدورة الفلك {إن عدة الشهور عند الله} حسب أمره وتقديره {اثنا عشر شهراً} محرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة {في كتاب الله} أي ما كتبه وقرره، وذلك طبق ناموس خلق الكون حيث دورة الفلك وسير الشمس والقمر، وقد كانت الكتابة {يوم خلق السماوات والأرض} فإنه من ذلك اليوم أجرى النيّرين المعدلين للشهور والسنوات. والظاهر من الأشهر، الأشهر القمرية، لأنها المتبادر لدى الشرع والمتشرعة.

{منها} أي من تلك الأشهر {أربعة حرم} سُمّي الشهر حراماً، لحرمة القتل والقتال فيه، ولما له من الاحترام، وقد كان كذلك قبل الإسلام أيضاً، حتى أن ولي الدم لو رأى قاتل أبيه لم يهجم عليه بسوء حتى ينقضي الشهر الحرام {ذلك} الترتيب للأشهر، والحرم منها {الدين القيم} أي الطريقة القويمة المستقيمة، لأنها مطابقة لناموس الخلق وحركة النيّرين، ولأن السلام لا بد وأن يسود فترة من الزمن، حتى

تهدأ النفوس، وتزول الهموم منها، فإن فترة الأشهر بغير ذلك فإنها لا تلائم الفطرة والخلق {فلا تظلموا فيهن} في تلك الأشهر الحرم {أنفسكم} بخرق حرمتها، فإن خرق حرمتها يوجب عقاباً ونكالاً.

{وقاتلوا} أيها المسلمون {المشركين كافةً} من غير فرق بين أقسامهم وأصنافهم، و«كافة» بمعنى الإحاطة، مأخوذة من «كافة الشيء» وهي حرفه، وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كفّ عن الزيادة، وأصل الكف: المنع، و«كافة» منصوبة على المصدر {كما يقاتلونكم كافة} أي أن قتالكم لهم إنما هو في مقابلة قتالهم لكم {واعلموا أن الله مع المتقين} فلا تفعلوا في الحرب ما ينافي التقوى، فإن الله سبحانه مع الذين يتقون معاصيه، ويمتثلون أوامره.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

[٣٧] لما بيّن سبحانه حرمة أشهر الحرم الأربعة، ذكر ما كان يفعله الجاهليون حيث كانوا يؤخرون تحريم الشهر الحرام إلى صفر حيثما شاءوا ذلك، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، ثم إذا انقضت حاجتهم أرجعوا الحرام إلى المحرم، وكان يقوم بذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب ولا يُردّ لي قضاء. فيقولون: نعم صدقت، أنسئنا شهراً أو أخّر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، وأحل المحرم. فيفعل ذلك، فإنهم بذلك يريدون القتال في الحرم، وهذا العمل يسمى «نسيئاً» فإن «أنسأ» بمعنى أخّر، و«النسيء» بمعنى تأخير الشهر الحرام عن وقته.

{إنما النسيء زيادة في الكفر} فإن المشركين كانوا كفاراً حسب عقائدهم حول الإله. واليوم الآخر فتحليل الحرام وتحريم الحلال، زيادة في الكفر، لأن التشريع لله وحده، فمن شرع في قبال الله سبحانه فهو كافر (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[٣٦]. ومن المعلوم أن الكفر والإيمان قابلان للزيادة والنقصان {يضل به الذين كفروا} أي يضل بسبب هذا النسيء الكفار، أما غير الكفار فإنهم لايتبعون إلا شريعة الله سبحانه فلا ضلال لهم بالنسيء، ومعنى «يُضَلّ» ـ بالبناء للمفعول ـ أن النسيء يسبب انحرافهم عن جادة الهدى {يُحلّونه} أي يحلون الشهر الحرام {عاماً} في عام فيجعلون المحرم حلالاً {ويحرمونه عاماً} فيمشون على الأصل في تحريم شهر محرم، وذلك حين يحتاجون إلى القتال في المحرم يحلّلونه، ويجعلون صفر بدله حراماً، وحين لا يحتاجون إلى القتال يكون المحرم على حاله في التحريم، وإنما يقدمون الحرام ويؤخرونه {ليواطئوا} أي ليوافقوا، يقال: «واطأ» في الشعر، إذا قال بيتين على قافية واحدة، ومثله «أوطأ» {عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله} أي ليكون تعداد الحرام بقدر تعداد الحرام الذي جعله الله، فإنهم لا يحلون الشهر الحرام، إلا وجعلوا مكانه شهراً آخر حراماً، وهذان عصيانان: تحليل الحرام، وتحريم الحلال {زُيّن لهم سوء أعمالهم} فقد زين الشيطان في نظرهم الأعمال

---

(٣٦) سورة المائدة: ٤٥.

السيئة فلازموها وافتخروا بها {والله لا يهدي القوم الكافرين} الذين يصرّون على الكفر بعد تبيّن الحق، فإنه سبحانه لا يلطف بهم لطفه الخاص.

[٣٨] وفي سياق حكم الجهاد مع الأعراب يأتي دور الكلام حول جهاد الروم، فإنه لما رجع رسول الله من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان إدراك الثمار فأحبوا المقام في مساكنهم وقريباً من أموالهم، وشق عليهم الخروج إلى القتال، وكان من عادته (صلى الله عليه وآله) أن يخفي الغزوة التي يريدها غالباً، لئلاّ يعرف العدو فيتخذ أهبته منها فيكثر القتلى، ولذا كان إذا أراد الخروج نحو غزوة في الشمال ذهب مقداراً نحو الجنوب ثم انحنى صوب قصده إلا في هذه الغزوة حيث كانت الشقة بعيدة والعدو كثير، فإنه (صلى الله عليه وآله) أخبر أصحابه بذلك ليتأهبوا ويأخذوا حذرهم، وتسمى هذه الغزوة بـ«تبوك» وقد بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن الروم قد جمعوا له أطراف الجزيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة، وانضمت إليهم لخم وجذم وعاملة وغسان من قبائل العرب وقدموا مقدماتهم إلى البقاء. فاستنفر المسلمين لجهادهم، وهنا وجد المنافقون فرصتهم لإظهار نواياهم فأخذوا يخذلون المسلمين، قائلين: «لا تنفروا في الحر» فقد كان الهواء حاراً، وقالوا: إن السفر بعيد، فلا طاقة لنا به، والعدو الروم فلا قِبَل لنا بهم، إلى غير ذلك من الأعذار الواهية.

{يا أيها الذين آمنوا ما لكم} : أيّ نفع وفائدة تعود إليكم في التخلّف والعصيان؟ {إذا قيل لكم} قال لكم الرسول: {انفروا في سبيل الله} اخرجوا إلى مجاهدة المشركين في «تبوك» وهي من بلاد البلقاء {اثاقلتم إلى الأرض} «اثاقل» من تثاقل، من باب «التفاعل» أبدلت تاؤه ثاءً، على القاعدة المشهورة في تاء «التفاعل» و«التفعّل» ثم جيء بالهمزة لاستحالة الابتداء بالساكن. أي: مِلتم إلى البقاء في الأرض، وعدم الخروج، كأن الجسم قد ثقل أزيد من وزنه العادي فكلما رُفع جذبه ثقله نحو الأرض {أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة} الاستفهام إنكاري، و«من» بمعنى البدل، أي: هل رضيتم أيها المسلمون وآثرتم الحياة الفانية القريبة بدل الحياة الباقية الآخرة {فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة} بالنسبة إليها {إلا قليل} فإن الدنيا قليلة، والآخرة كثيرة، فلا ترجّحوا القليل على الكثير، وإذا تركتم الجهاد فاتتكم تلك المنافع الدائمة الخالدة.

[٣٩] {إلاّ تنفروا} أي: إن لا تخرجوا إلى القتال الذي دعاكم إليه الرسول {يعذّبكم} الله {عذاباً أليماً} مؤلماً موجعاً في الدنيا من قبل الكفار، وفي الآخرة بالنار {ويستبدل} بكم {قوماً غيركم} فيأتي بمسلمين آخرين مكانكم وبدلكم ينصرون الرسول ويطيعون أوامره، فإن الله على كل شيء قدير {ولا تضروه شيئاً} لا تضروا الله بقعودكم عن القتال شيئاً، فإنه غني عنكم وعن العالمين، وإنما تضرون أنفسكم {والله على كل شيء قدير} فيقدر أن يستبدل بكم غيركم، كما يقدر أن ينصر الرسول (صلى الله عليه وآله) بدونكم، كما نصره من ذي قبل حيث لم تكونوا مسلمين أنتم ـ أيها المتخلفون ـ .

[٤٠] ثم بيّن سبحانه إمكانية نصر الرسول بدونهم، بضرب مثل قريب، وهو نصرته على الكفار في مكة حيث أرادوا قتله فأنجاه منهم وأعزه، وأذلهم {إلاّ تنصروه} أي إن لم تنصروا الرسول في غزو الروم {فقد نصره الله} من ذي قبل، وهو قادر على نصره الآن {إذ أخرجه الذين كفروا} من مكة، ونسبة الإخراج إليهم لأنهم كانوا السبب حين أرادوا قتله ففر من أيديهم {ثاني اثنين} فقد كان حين الفرار هو وأبو بكر، إذ رآه في الطريق فأخذه كيلا يخبر الناس بخبره (صلى الله عليه وآله) فيلحقه الطلب، فإن من عادة الإنسان أن يفشي الأنباء الهامة، وذكر «ثاني اثنين» لبيان أنه (صلى الله عليه وآله) كان بهذه الغربة حتى أنه لم يكن معه إلا نفر آخر.

فالله القادر على نصره وهو بتلك الغربة والوحدة، قادر على أن ينصره الآن. ولبيان ذلك جيء بالقيدين الآخرين {إذ هما في الغار} «الغار» هو الثقب في الجبل {إذ يقول} الرسول {لصاحبه} أبي بكر: {لا تحزن إن الله معنا} مطّلع علينا، فالإنسان الفار اللاجئ إلى ثقب جبل لا أحد معه إلا شخص واحد يخشى ويخاف ويحزن فيزيده كآبة، كيف نصره الله على أعدائه، إن الله قادر على أن ينصره الآن كما نصره سابقاً.

وقد استدل بعض على فضيلة أبي بكر بهذه الآية، لكن لا يخفى ما فيه، فإنها لم تدل إلا على كونه أحد الشخصين، وأنه صاحب، وأنه حزن، وأن الله معهما، ولا دلالة في شيء من ذلك، فإن الاثنين عدد «وثاني اثنين» حكاية العدد، وليس فيما يقتضي الفضل يعد، والصاحب يطلق على كل مصاحب (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ)[٣٧]، والحزن لم يكن صحيحاً وإلا لم ينهه الرسول (صلى الله عليه وآله) (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[٣٨]، والله سبحانه مع كل بر وفاجر (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ)[٣٩]، بل ربما قيل: إن الآية دلت على خلاف الفضيلة إذ قال سبحانه: «عليه» و «أيده» بينما قال في مكان آخر (عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)[٤٠].

إن هذا البحث له موضع غير هذا الموضع، وإنما المقصود الإشارة إلى عدم حسن أن يقحم في القرآن الحكيم ما ليس منه ثم جرّ الآيات إلى الأنظار والأفكار جرّاً بدون دلالة أو برهان. فقد ورد الذم لمن فسّر القرآن برأيه.

{فأنزل الله سكينته عليه} أي على الرسول (صلى الله عليه وآله)، أي ألقى في قلبه ما سكن به، وعلم أنه سبحانه ينصره عليهم {وأيده} أي قوّى الرسول ونصره {بجنود} من الملائكة {لم تروها} أي ما رأت الكفار إياها، بمعنى عدم كونهم أجساماً حتى يروا.

---

(٣٧) سورة الكهف: ٣٥.

(٣٨) سورة يونس: ٦٣.

(٣٩) سورة المجادلة: ٨.

(٤٠) سورة توبة: ٢٦.

ورد أنه كان رجل من خزاعة يقال له «أبو كرز» اقتفى مع المشركين أثر الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى وقف بهم على الغار فقال لهم: هذه قدم محمد (صلى الله عليه وآله) هي والله أخت القدم التي في المقام، وقال: هذه قدم أبي قحافة أو ابنه ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكونوا قد صعدوا السماء أو دخلوا في الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار وهو يقول لهم: اطلبوه في هذه الشعاب، وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار، وأرسل الله زوجاً من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب فقال سراقة وكان مع الكفار: لو دخل الغار أحد لانكسر حتماً البيض وتفسخ بيت العنكبوت. ودعا النبي (صلى الله عليه وآله) قائلاً: «اللهم اعم أبصارهم» فعميت أبصارهم عن دخوله وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار ويئسوا أخيراً فرجعوا[٤١].

{وجعل} الله تعالى {كلمة الذين كفروا} وكيدهم للرسول وشوكتهم {السفلى} إذ تحطمت وفشلت فكانت في الدرجة السفلى {وكلمة الله هي العليا} المرتفعة المنصورة، وهذا إخبار بأن كلمته وقوله دائماً يكونان كذلك. ومن الواضح في التاريخ أن كلمة الله عالية وأنصارها الأعلون، وإن كانت الغلبة لكلمة الكافرين، حتى إن الناس لو كانت سيوفهم مع السلطات الباطلة كانت قلوبهم مع أهل الحق ورأوا أن الحق عندهم {والله عزيز} غالب {حكيم} في تدبيره.

(٤١) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٢٧.

انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لاَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلاَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)

[٤١] {انفروا} من «نفر» إذا خرج مسرعاً، أي اخرجوا إلى الجهاد {خفافاً} جمع «خفيف» {وثقالاً} جمع «ثقيل»، والخفة تطلق على قليل العيال، قليل السن والنشيط، وقليل المشاغل، كما أن الثقل عكس ذلك كله، والمراد: جاهدوا واخرجوا لأجل الحرب كيفما كنتم في خفة أو ثقل {وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم} والمجاهدة بالمال: بذله في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، والمجاهدة بالنفس: الذهاب للحرب {في سبيل الله} ويسمى جهاداً، لأنه من الجهد والتعب {ذلكم} ذلك إشارة، و«كم» للخطاب، أي أن الجهاد ـ أيها المسلمون ـ {خير لكم} من تركه، فإنه فيه عِزّ الدنيا وسعادة الآخرة {إن كنتم تعلمون} ليس المعنى إن لم تعلموا لم يكن خيراً لكم، بل المعنى إن كنتم تعلمون، لعلمتم أنه خير لكم.

[٤٢] كان المنافقون يُرجفون بالمسلمين قائلين: «إن السفر بعيد» فإنها كانت مسافة بعيدة بين المدينة وبين «تبوك» فلا تذهبوا إلى الجهاد. فرد عليهم سبحانه {لو كان} ما دعوتهم إليه يا رسول الله {عرضاً قريباً} أي غنيمة سهلة التناول، فإن أموال الدنيا تسمى أعراضاً باعتبار كونها زائلة فانية {وسفراً قاصداً} أي سفراً متوسطاً في البعد والقرب، بأن سهل عليهم الذهاب والخروج {لاتبعوك} لأنه يسهل عليهم ذلك {ولكن بعدت عليهم الشقة} أي المسافة، فإن الشقة بمعنى القطعة من الأرض التي يشق على إنسان السير فيها لبعدها، ولذا يأتون بالأعذار الواهية فراراً {وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم} فإنهم كانوا يحلفون بأنهم لا يقدرون على الخروج لاشتغالهم وأن لهم أعذاراً مشروعة {يهلكون أنفسهم} هؤلاء المعتذرون باستحقاقهم العقاب في الآخرة، والنكال في الدنيا، فإن ترك الجهاد يوجب الذلة والصغار للفرد والجماعة {والله يعلم إنهم لكاذبون} في ادعائهم أنهم لا يستطيعون الخروج.

[٤٣] استأذن جماعة من المنافقين الرسول (صلى الله عليه وآله) في تركهم الخروج إلى تبوك، فأذن لهم الرسول (صلى الله عليه وآله) وقد كان هذا الإذن كسائر أوامر الرسول وكلماته بالوحي بدليل قوله سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[٤٢]، لكن الاستئذان من القوم كان نفاقاً فاستحقوا العقاب.

ومن البلاغة أن يوجه الإنسان العتاب إلى أحد وهو يريد إفهام غيره، فإذا ألحّ الشخص المتظاهر بالفقر، فأشرت إلى ولدك بإعطائه المال، تقول له ـ معاتباً ـ وأنت تريد إفهام الآخذ: لم أعطيته المال؟ مع أن إعطاءه كان بأمرك ولكنك تريد توبيخ الآخذ بصورة بليغة، وهذا كما يظهر في الكلام يظهر في العمل، فقد تأخذ بيد الولد لتقصيره أمام الآخذ مظهراً غضبك عليه، تريد إفهام الآخذ بسوء صنيعه في الأخذ، كما تقدم في قصة موسى وهارون (عليهما السلام).

وهذا هو المعنى من قول الإمام الرضا (عليه السلام) في جواب أسئلة المأمون عن عصمة الأنبياء. وأنه كيف قال للرسول (صلى الله عليه وآله): «عفا الله عنك..»، هذا مما نزل بـ«إياك أعني واسمعي يا جارة»[٤٣].

{عفا الله عنك} يا رسول الله. إنه (صلى الله عليه وآله) لا يريد أنه فعل خلاف الأولى، حتى يستحق العفو أو العتاب، بل يريد إفهام المتخلفين أنهم فعلوا فعلاً قبيحاً حتى إن الإذن لهم في القعود يستحق العفو {لم أذنت لهم} في البقاء وعدم الخروج إلى الجهاد {حتى يتبين لك الذين صدقوا} في أنهم لا يستطيعون الخروج {وتعلم الكاذبين} أي حتى تعلم وتميّز بين الصادق والكاذب، وقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يميّز ويعلم، كيف وأحدنا يعلم الصادق والكاذب من أصحابه وأصدقائه؟ لكن هذا الكلام لتنبيه المتخلفين الكاذبين، وأنه عرف كذبهم وسوء قصدهم.

[٤٤] {لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر} إيماناً صادقاً، كيف والمؤمن يعلم أنه سواء غَلب أو غُلب كان له الأجر العظيم والعاقبة المحمودة عند الله سبحانه، ولذا لا يطلب الإذن في التخلّف {أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم} في أن يجاهدوا، والمعنى لا يستأذنوا للتخلّف في أمر الجهاد، لا أن المعنى لا يستأذنون للجهاد {والله عليم بالمتقين} الذين يتقون عصيان الله، ويعملون حسب أوامره.

[٤٥] {إنما يستأذنك} ويطلب إذنك في القعود عن الجهاد {الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر} إيماناً صادقاً عن عقيدة ورسوخ {وارتابت قلوبهم} أي شكّت، من «الريب» بمعنى التردّد، أي شكّوا في صدق الأمر وحقيقته {فهم في ريبهم} وشكّهم حول المبدأ والمعاد {يتردّدون} فتارة ترجح عندهم العقيدة، وأخرى يرجح عندهم الإنكار. ولهذا فإن هؤلاء لما لم يستيقنوا يستأذنوك للتخلّص من الصعوبة.

---

(٤٢) سورة النجم: ٤ و٥.

(٤٣) بحار الأنوار: ج١١، ص٨٣.

[٤٦] ثم بيّن سبحانه علامة نفاقهم وأنهم امتازوا عن المؤمنين بأن لم يستعدوا للجهاد فقد نووا من أول الأمر عدم الخروج {ولو أرادوا الخروج} إلى الجهاد، كما أراد سائر المؤمنين {لأعدّوا له} للجهاد {عُدّةً} أُهبة، فإن العدة والأهبة والآلة نظائر {ولكن كره الله انبعاثهم} الانبعاث هو الانطلاق بسرعة في الأمر {فثبّطهم} أي أوقفهم عن الجهاد بالتزهيد فيه فرغبوا عنه {وقيل} القائل هو الله سبحانه ـ بلسان الحال ـ أو إخوانهم المنافقون: {اقعدوا مع القاعدين} النساء والصبيان والعجزة الذين بقوا في المدينة ولم يخرجوا للجهاد.

إن أمر الجهاد كان متوجهاً إليهم مع صفاء النية وخلوص القصد، أما أنهم نافقوا وكانوا لو خرجوا ألقوا التشويش والاضطراب ـ كما هو شأن المنافق في كل حركة ـ بالنميمة بين المسلمين، وكان الضرر في خروجهم أكثر، فالأحرى أن لا يخرجوا، فالله سبحانه كره ذهابهم للغزو لهذه الجهة فلم يوفّقهم للجهاد. وقد مرّ مكرراً أنه تصحّ نسبة الفعل إليه سبحانه باعتبار أنه لم يزل العائق تكويناً، كما يقال: «إن الملك عوّق ذهاب الجيش ولم يدعهم يذهبوا»، فيما إذا لم يزل العائق أمامهم.

[٤٧] ثم بيّن سبحانه سبب كره الله انبعاثهم بقوله: {لو خرجوا} أي خرج هؤلاء المنافقون إلى الجهاد {فيكم} أي في ضمنكم أيها المسلمون {ما زادوكم إلا خبالاً} «الخبال» هو الفساد، أي كان خروجهم معكم سبباً للفساد والاضطراب، فإن المنافق دائم النقد للحركات، كثير التخذيل مما يوجب فساداً واضطراباً وتشويشاً {ولأوضعوا خلالكم} «الإيضاع» الإسراع في السير، و«الخلال» بمعنى «البين»، أي أسرعوا في الدخول بينكم بالفساد والنميمة والإفساد {يبغونكم} أي يطلبون لكم {الفتنة} واختلاف الكلمة والانشقاق ـ كما هو شأن المنافق ـ {و} يكونون {فيكم} أيها المسلمون {سمّاعون لهم} يسمعون أقوال الكفار ـ المفهوم من الكلام ـ فيصبح هؤلاء المنافقون جواسيس وعيوناً للكفار، أو المراد: إن كانوا معكم كان من المؤمنين البسطاء أشخاص يسمعون لأولئك المنافقين، فعدم مجيئهم كان أنفع لكم {والله عليم بالظالمين} الذين ظلموا أنفسهم بالنفاق وعدم الخروج، فيُجازيهم بما عملوا.

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)

[٤٨] {لقد ابتغوا} وطلب هؤلاء المنافقون {الفتنة} والفساد بين المسلمين {من قبل} في أحد وفي حنين وعند الثنية عند رجوع النبي (صلى الله عليه وآله) من حجة الوداع حيث أرادوا قتله ودبروا مؤامرة خبيثة لتشتيت شمل المسلمين {وقلبوا لك الأمور} «التقليب» تصريف الشيء على غير وجهه، فقد احتال المنافقون لأن يقلبوا وحدة المسلمين تشتتاً، وصفاءهم كُدورة {حتى جاء الحق} الظفر الذي وعد الله سبحانه {وظهر أمر الله} دينه والإسلام وحقيقة الرسول (صلى الله عليه وآله) {و} الحال أن {هم كارهون} لمجرد الحق وظهور أمر الله، فإن يثيروا الفتن الآن بالنفاق، فقد كانوا سابقاً كذلك، فلا يهمّك أمرهم يا رسول الله، ولا تُعيرهم بالاً.

[٤٩] {ومنهم} أي من المنافقين المتخلّفين في غزوة تبوك {من يقول ائذن لي} يا رسول الله في التخلّف {ولا تفتني} لا تُوقعني في الفتنة، بأن تأمرني فلا أُلبّي الطلب، أو المراد: لا تفتني ببنات الأصفر.

فقد ذكر المفسرون: أن رسول الله لما استنفر الناس إلى حرب الروم في تبوك قال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر، فقام جد بن قيس أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني ببنات الأصفر، فإني أخاف أن أفتتن بهن، فقال: قد أذنت لك، فنزلت الآية. ويُسمّى الروم بنوا الأصفر، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم وكان له بنات قد أخذن بياض الروم وسواد الحبشة فكُنّ صُفراً لعساً. كما عن الفراء. .

ثم إن الرسول (صلى الله عليه وآله) جزى هذا الرجل بصنيعه فقد قال لبني سلمة: مَن سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس إلا أنه بخيل جبان. فقال (صلى الله عليه وآله): وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور(٤٤).

{ألا في الفتنة سقطوا} إنهم أظهروا بتخلفهم الفرار عن الفتنة، فقد سقطوا في الفتنة بتخلفهم عنك وعصيانهم لك، فإن الإذن عن كُره كعدمه {وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} تحيط بهم فلا مخلّص لهم منها. ولعل هذا التعبير بمناسبة أنهم أظهروا الفرار من الفتنة، لكن المنافق لا يفرّ من فتنة إلاّ ويسقط في فتنة أخرى، لأنه من أهل النار وهي محيطة به، فكيف يفر منها.

[٥٠] وكيف يكون هؤلاء المنافقون مسلمين، والحال أن صفاتهم صفات الكافرين {إن تصبك} يا رسول الله {حسنة} تصل إليك غنيمة أو خير {تسؤهم} أي يحزن المنافقون من أجلها {وإن تصبك مصيبة} شدة وآفة في النفس أو المال أو غيرهما {يقولوا} المنافقون: {قد أخذنا أمرنا من قبل} أخذنا حذرنا من قبل وقوع الرسول (صلى الله عليه وآله) وأصحابه في هذه البلية {ويتولوا وهم فرحون} رجعوا إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المؤمنين من الشدة. وقد كان من عادة المؤمنين عكس ذلك، فإنهم إذا رأوا الرسول في شدة اجتمعوا حوله ليواسوه بأنفسهم.

[٥١] {قل} يا رسول الله لهؤلاء: {لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} فلم يكن ما أصابنا شر لنا، كما زعمتم، بل إن الله سبحانه كتب هذه البلايا لنا لأن ترفع درجاتنا في الآخرة، وينصرنا على أعدائنا في النهاية، ونحن مسلمون لأمر الله منقادون لإرادته {هو مولانا} أولى بنا من أنفسنا، فما كتبه لنا كان لخيرنا وصلاحنا {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} بأن يكِلوا أمرهم إليه، ويرضوا بقضائه، فليس ذلك إلا للخير والسعادة.

[٥٢] {قل} يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: {هل تربّصون} «التربص» الانتظار، أي: هل تنتظرون {بنا إلا إحدى الحسنيين} إما النصر والظفر وخير الدنيا، وإما الشهادة في سبيل الله وفيها خير الآخرة، فلا يعود تربّصكم بشر لنا أو خير لكم {ونحن نتربّص بكم}ننتظر أن تقعوا في أحد الشرين {أن يصيبكم الله بعذاب من عنده} بأن تهلكوا فتُعذّبوا في الآخرة {أو بأيدينا} بأن ننتصر عليكم فتصبحوا أذلاء في الدنيا خاسرين مقهورين {فتربصوا} أي انتظروا. وهو تهديد في صورة الأمر كقوله: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)(٤٥)، {إنا معكم متربصون} أي منتظرون، حتى نرى لمن العاقبة الحسنة، ولمن العاقبة السيئة.

[٥٣] قد كان بعض المنافقين عرضوا أموالهم لمساعدة المجاهدين في «تبوك» لينجوا بذلك عن الذهاب بأنفسهم ولا يقعوا موقع لوم المسلمين بأنهم نافقوا، ولم يشتركوا في الجهاد مع المجاهدين، لكن الله سبحانه أخبر عن نيتهم وأن إنفاقهم لا ينفع شيئاً {قل} يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: {أنفقوا} أموالكم

---

(٤٤) بحار الأنوار: ج٢١، ص١٩٣.

(٤٥) سورة فصلت: ٤١.

للجهاد {طوعاً أو كرهاً} طائعين أو مكرهين {لن يُتقبّل منكم} أي إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لا يتقبل الله منكم الإنفاق. فاللفظ أمر والمعنى الشرط.

ثم بيّن السبب بقوله: {إنكم كنتم قوماً فاسقين} خارجين عن طاعة الله سبحانه، والفاسق لا يتقبل منه الإنفاق، لأن قبول الأعمال مشروط بالتقوى وهو منفي عنهم، قال سبحانه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)(٤٦).

[٥٤] {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم} : أيّ شيء منع قبول إنفاقهم والإثابة عليه؟ إنه كفرهم {إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} فإن الكفر الباطني مانع عن قبول الأعمال، وإن أظهر الإسلام {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى} متثاقلين، فإن المؤمن حيث امتلأ إيماناً يقدم على الطاعات بكل شوق ورغبة، بخلاف المنافق الذي لم يذعن قلبه لشيء، فإنه لا يأتي الصلاة وسائر الطاعات إلاّ متثاقلاً كسلاناً فإنه يريد بذلك إراءة الناس {ولا ينفقون إلا وهم كارهون} للإنفاق، لأنهم لايدفعون المال عن عقيدة وإخلاص، وإنما يدفعون للتستر بالإسلام والتحفّظ على أنفسهم من ألسنة المؤمنين، لئلاّ يظهر ما ينوون من الكفر والنفاق.

---

(٤٦) سورة المائدة: ٢٨.

فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

[٥٥] {فلا تعجبك} يا رسول الله {أموالهم ولا أولادهم} أي لا يأخذ بقلبك ما تراه من كثرة أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، ولا تنظر إليهم بعين الإعجاب، فإن الأموال والأولاد قد تكون نعمة وخيراً حينما يشكر الإنسان وجودها ويصبر ويحتسب لفقدها، أما إذا لم تكن كذلك، فهي بالعكس تصبح وبالاً على الإنسان {إنما يريد الله ليعذبهم بها} بهذه الأموال والأولاد {في الحياة الدنيا} فإن النفس غير المطمئنة تكون دائمة القلق على مصير الأموال والأولاد لأنها دائمة الخوف عليهما، أما المؤمن فإن بقيت أمواله وأولاده شكر وإن ذهبت صبر، وعلم أن ذلك موجب للأجر والثواب، فلا يكون خائفاً قلقاً.

قال أحد الكافرين: إن أعجب ما رأيت من شيخ مسلم أنه كان صاحب أغنام تُعدّ بالألوف وكان جميع كيانه بها وإذا به يفاجأ ذات يوم . وأنا عنده . بأن يخبره آتٍ قائلاً: إن الأغنام ذهب بها السيل، قال: وكنت أترقب انقلاباً في حال الشيخ الذي ذهب كل كيانه بذهاب أغنامه، وإذا به يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، وماذا نصنع؟ نتوكل على الله، ونصبر، فهو خير للصابرين» وكأن أمراً لم يحدث.

{وتزهق أنفسهم} تهلك وتذهب بالموت بصعوبة، فهم قد عاشوا في الدنيا بصعوبة وقلق، وهاهم يموتون، وحينما تريد أرواحهم أن تخرج، تخرج بصعوبة، فيموتون بكل صعوبة {وهم كافرون} فقد عاشوا أشقياء، وماتوا أشقياء ويحشرون أشقياء إذ ماتوا كافرين. ثم إن جملة «تزهق» إما استئنافية، وإما عطف على «ليعذبهم». وإرادة الله ذلك، إنما كانت بسبب أنهم أعرضوا عن الحق فتركهم الله سبحانه في كفرهم. وهو معنى إرادته أن يموتوا كافرين.

[٥٦] وقد كان هؤلاء المنافقين يريدون اللعب على حبلين، فحيث أن السلطة بيد المسلمين يريدون إرضاءهم بإظهار أنهم منهم، وحيث أن قلوبهم كانت منكرة كانوا مع الكافرين باطناً وعملاً، لكن الله سبحانه أبدى نواياهم {ويحلفون بالله إنهم لمنكم} يقسمون بالله إنهم مثلكم في الإيمان والإخلاص {وما هم منكم} ليسوا مثلكم {ولكنهم قوم يفرقون} من «فرق» بمعنى خاف، أي يخافون ويجتنبون القتل والقتال، وكيف يكون من يجبن مثل غيره من المسلمين الأقوياء القلوب؟!

[٥٧] {لو يجدون} أي لو وجد هؤلاء المنافقون الجبناء {ملجأً} حصناً، ويُسمّى الحصن بذلك، لأن الإنسان يلجأ عند الخوف إليه {أو مغارات} جمع «مغارة»، من «غار يغور» إذا دخل، ومنه «الغار» بمعنى النقب في الجبل {أو مدخلاً} من «ادّخل» أصله أو «تدّخل» من باب الافتعال قلبت تاؤه دالاً، وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، والمراد به النفق وشبهه، أي: لو وجد هؤلاء المنافقون الجبناء محل فرار سواءً كان حصناً أو غاراً أو ثقباً في الأرض {لولّوا إليه} أي فروا منكم ومن القتال إلى ذلك المخبأ {وهم يجمحون} من «الجموح» بمعنى المضي مسرعين بحيث لا يردهم شيء.

[٥٨] {ومنهم} أي من المنافقين {من يلمزك} يقال: «لمز الرجل» إذا عابه، قال سبحانه: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)[٤٧]، {في الصدقات} أي في تقسيم الصدقات وهي الغنائم وما أشبهها، مما فرضه الله سبحانه لإقامة المصالح، أي يطعنون عليك في تقسيمك {فإن أُعطوا منها رضوا} وقالوا إن محمداً (صلى الله عليه وآله) عدل وأعطى الحق في موضعه {وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون} يغضبون ويعيبون، فليسوا معترفين بك وأن أعمالك إنما تصدر عن الوحي، بل هم طلاب دنيا.

ورد أن هذه الآية نزلت لما جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقسمها بينهم، فلما وضعها في الفقراء تغامزوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولمزوه وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب وننفر معه ونقوّي أمره، ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً.

إنهم قالوا هذا القول وطعنوا في الرسول، لا حباً للعدالة، بل غضباً لأنهم لم ينالوا منها.

[٥٩] {ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله} أي ما أعطاهم الرسول بحكم الله سبحانه {وقالوا حسبنا الله} كافينا {سيؤتينا الله من فضله} فإن لم يقسم لنا من هذه الصدقة قسم لنا من غيرها {ورسوله} ذكر الله لأنه الآمر، وذكر الرسول لأنه المقسم والمعطي {إنا إلى الله راغبون} نرغب إليه ونطلب منه سبحانه أن يوسع علينا. أي «لكان خيراً لهم» هذا هو جواب «لو» فإنه حُذف للدلالة

---

(٤٧) سورة الهمزة: ٢.

على العموم والتوسعة، فإن المذكور إنما هو لفظ واحد بخلاف المحذوف، ولذا قالوا: إن حذف المتعلق يفيد العموم.

[٦٠] ثم بيّن سبحانه مصرف الصدقات، وأنها يجب أن تُصرف في المصارف المذكورة لا أن تعطى للأغنياء والطامعين {إنما الصدقات للفقراء} المراد بالصدقات الزكاة. كما أجمع المفسرون عليه. وهي تؤخذ بنسبة العُشر ونصف العشر وربع العشر، من أموال تسعة، بعنوان الوجوب، ومن غيرها بعنوان الاستحباب. كما فُصّل في الفقه. والأموال التسعة هي: الإبل، والبقر، والغنم، والذهب، والفضة، والحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب. بشرائط مخصوصة، وتعطى لثمانية أصناف، منهم:

الفقراء الذين لا يجدون قوت سنة لأنفسهم ولعيالهم حسب شأنهم، لا قوةً ولا فعلاً.

{والمساكين} وهم أسوأ حالاً من الفقير، كأن الفقر أسكنه الأرض فلم يقدر على التحرك، وحيث أنهم في المجتمع صنفان متمايزان، إذ هناك صنف تعسّرت أموره وإن كان ظاهره لا بأس به، وصنف داخل في العجزة كالعميان والزمنى ومن إليهم، ذكرهم سبحانه صنفين، وإن كان الميزان في الصنفين واحداً، وهو عدم تمكنهم من مؤونة سنة فعلاً وقوة.

ولعل وجه تقديم الفقراء: أن إعطاءهم من الزكاة أبعد في النظر ولذا جيء بهم أولاً، تداركاً لهذا البعد، كما أنك إذا أردت أن تعدّ من أتاك تذكر الأبعد في نظر السامعين، كما أن ذكر المساكين مع أنهم داخلون في الفقراء لعلة، وذلك لدفع احتمال أن مثل هؤلاء لا بد وأن يعيشوا على إحسان المحسنين من الذين يتصدقون بالصدقات المستحبة لدفع البلاء، كما جرت العادة، لا أن يكون لهم رزق في خزينة الدولة.

{والعاملين عليها} أي الذين يعملون لأجل جمع الزكوات، وجبايتها، ولو كانوا أغنياء فإنهم يأخذون حق العمل، ولفظة «على» لأجل أن العامل يقتطع من أموال الناس، فهو شبيه بالضرر، فإنه يعمل لأجل الفقير، على الغني.

{والمؤلفة قلوبهم} أي الكفار الذين يُراد تأليف قلوبهم بالمال ليميلوا نحو الإسلام أو نحو المسلمين، فإن الأموال تقرّب الناس إلى الناس، وتقرّب الناس إلى الأديان والمبادئ، وكذلك المسلمون الذين أسلموا ولكن لم يدخل الإسلام في قلوبهم فيُعطوا من الزكاة لتقوى عقيدتهم، ويستحكم إسلامهم.

{وفي الرقاب} جمع «رقبة» والمراد بها: الإنسان، فإن الرقبة تستعمل في الإنسان بعلاقة الجزء والكل، كما أن «العين» تستعمل في الجاسوس بهذه العلاقة، والمراد بهم: العبيد الذين هم تحت الشدة، يُشترون من الزكاة ويُعتقون، وكذلك العبيد الذين كاتبوا مواليهم ولم يقدروا على دفع تمام مال الكتابة.

{والغارمين} جمع غارم، من «غرم» بمعنى استدان، والمراد بهم: الذين اقترضوا ثم أنفقوا المال في غير معصية، ومن غير سرف، فإنهم يعطون من الزكاة ليؤدّوا ديونهم، أو تُدفع ديونهم منها ولو بعد موتهم.

{وفي سبيل الله} وهي جميع مصالح المسلمين التي من أظهرها: الجهاد لإعلاء كلمة الله.

{وابن السبيل} وهو المسافر المنقطع به في سفره، يُعطى من الزكاة ليرجع إلى محله، وإن كان في بلده غنياً. {فريضة من الله} أي افترض الله سبحانه تقسيم الزكاة بهذه الصورة فريضة {والله عليم} بحاجة خلقه {حكيم} فيما فرض عليهم، وعلى من فرض. والكلام حول الزكاة طويل، راجع «عبادات الإسلام»[٤٨] حتى تعرف بعض أحكامها.

[٦١] كان الكلام حول المنافقين وعلامات النفاق وبعض ما صدر منهم مما يدل على انحرافهم ونفاقهم، فمنهم من يلمز النبي في الصدقات، ومنهم من يؤذي النبي، ومنهم من يخشى أن تنزل عليه (صلى الله عليه وآله) سورة، تفضحه وتبين نفاقه {ومنهم الذين يؤذون النبي} إيذاءً بالقول، فقد كان عبد الله بن نفيل منافقاً، وكان يقعد إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيسمع كلامه ثم ينقله إلى المنافقين وينمّ عليه. فنزل جبرائيل (عليه السلام) وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بخبر المنافق، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبره بذلك فحلف أنه لم يفعل فقبل منه الرسول (صلى الله عليه وآله) ـ حسب الظاهر ـ ونهاه أن يقعد مع أصحابه من بعد، فرجع إلى أصحابه وقال: إن محمداً «أُذُن» أخبره الله أني أنُمّ عليه وأنقل أخباره، فقَبِل، وأخبرته: أني لم أفعل، فقبل، فأنزل الله هذه الآية: {ويقولون هو أذن} أي يستمع إلى ما يقال له ويقبل، ولا فطنة له بأن يُميّز بين الصحيح من الكلام والسقيم.

{قل} يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: إني {أذن خير لكم} فإنه (صلى الله عليه وآله) أُذُن كما قالوا، ولكن ليس كما قصدوا، فإن «الأذن» قد يكون في سماع كلام الشر في أحد ثم يرتّب الأثر عليه، وقد يكون خيراً، يسمع الكلام ولا يُكذّبه، ولكنه لا يرتّب ما على المجرم من العقاب، كيف يمكن أن يعاب عليه فعله هذا؟! لكن المنافق هو الذي يرى الإحسان ـ حتى بالنسبة إلى المنافق ـ إساءة.

{يؤمن بالله} إيماناً من القلب، ويعلم أن الله سبحانه صادق {ويؤمن للمؤمنين} أي لنفع المؤمنين، وفرق بين «الإيمان به» إذ معناه تصديقه، و«الإيمان له»، أي يرتب الأثر الذي هو نافع للمؤمن، سواءً اعتقد بذلك أم لم يعتقد. فقد اعتقد الرسول (صلى الله عليه وآله) صحة كلام جبرئيل المنزل من قبله سبحانه، كما رتّب أثر الصحة لنفع ذلك المؤمن ـ المنافق ـ حيث لم يعاقبه. ولا يخفى أن «الإيمان» له إطلاقان: إطلاق على كل مؤمن مقابل الكافر، وهو من أظهر الإسلام، وإن لم يدخل في قلبه، كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)[٤٩]، وإطلاق على المعتقد في مقابل المنافق، كما قال سبحانه: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)[٥٠] والمراد هنا: الإطلاق الأول.

---

(٤٨) للمؤلف.

(٤٩) سورة النساء: ١٣٧.

(٥٠) سورة الحجرات: ١٥.

{و} هو (صلى الله عليه وآله) {رحمة للذين آمنوا منكم} ولو إيماناً ظاهرياً، حيث أنه هداهم للأصلح بحالهم في الدنيا، أما المؤمن الحقيقي فإنه سعد بالرسول (صلى الله عليه وآله) دنياً وآخرة {والذين يؤذون رسول الله} بالقول أو العمل، لا يظنون أنهم فاتوه حيث لم يعاقبهم وقبل عذرهم، فلم يُرتّب على أذيتهم شيء، بل {لهم عذاب أليم} مؤلم موجع في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأن إيذاء الرسول له أثر وضعي يوجب الخسران والخزي، وأما في الآخرة فله عذاب أليم في النار.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)

[٦٢] {يحلفون بالله} أي يحلف هؤلاء المنافقون {لكم ليرضوكم} حيث أنكم تقبلون عذرهم إذا أقسموا بالله بأنهم لم يقولوا ما قالوا، ولم يفعلوا ما فعلوا {والله ورسوله أحق أن يرضوه} أي يرضوا كل واحد منهما، بالإيمان الصحيح وعدم الإيذاء واقعاً ـ مما يريدون ستره بالحلف ـ أما الترضية الظاهرية للرسول، فإنها لا تنفعهم في الباطن والواقع {إن كانوا مؤمنين} واقعاً، والمعنى: إن كانوا مؤمنين واقعاً لعلموا أن مرضاة الله والرسول أولى من الترضية الظاهرية.

[٦٣] {ألم يعلموا} أليس يعرف هؤلاء المنافقون {أنه من يحادد الله ورسوله} «المحادّة» مجاوزة الحد بالمشاقة والمخالفة {فأن له نار جهنم خالداً فيها} فإن علموا ذلك فكيف يحادّون الله والرسول بالنفاق وإيذاء الرسول {ذلك} الخلود في النار {الخزي} أي الهوان {العظيم} الذي لا خزي فوقه.

[٦٤] {يحذر المنافقون} أي يخافون ويخشون {أن تنزّل عليهم سورة} من القرآن {تنبّئهم بما في قلوبهم} أي تُخبرهم بنفاقهم، فتكون فضيحةً لهم، وقوله «تنبئهم» لإفادة أنهم كانوا يخفون نفاقهم، فكأنهم لايعلمون. وإنما السورة المنزلة تخبرهم حسب تظاهرهم بالنفاق.

ورد أنه لما خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى «تبوك» قال قوم من المنافقين فيما بينهم: أيرى محمداً أن حرب الروم مثل حرب غيرهم، لا يرجع منهم أحد أبداً. فقال بعضهم: ما أحرى أن يخبر الله محمداً بما كُنّا فيه، وبما في قلوبنا، وينزل بهذا قرآناً يقرأه الناس ـ قالوا هذا على حد الاستهزاء ـ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعمار بن ياسر: إلحق القوم فإنهم قد احرفوا، فلحقهم عمار فقال لهم: ما قلتم؟ قالوا: ما قلنا شيئاً إنما نقول ذلك على حد اللعب والمزاح. فنزلت هذه الآية.

{قل} يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: {استهزئوا} أمر في معنى الوعيد {إن الله مخرج ما تحذرون} أي مُظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم وقولكم الاستهزائي.

[٦٥] {ولئن سألتهم} يا رسول الله! عن طعنهم في الدين واستهزائهم بك وبحركاتك، وقلت لهم: لم فعلتم ذلك؟ {ليقولن إنما كنّا نخوض ونلعب} «الخوض» هو دخول القدم في المائع، من ماء أو طين، ثم كثر استعماله في الدخول فيها، يعني: على وجه اللهو دون الجد، أي كان كلامنا مجرد لعب ولهو دون إرادة الحقيقة والجد {قل} يا رسول الله لهم: {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} استفهام إنكاري، أي كيف تستهزئون بالله وحججه ورسوله؟

[٦٦] قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: {لا تعتذروا} بهذه الأعذار الواهية الكاذبة {قد كفرتم بعد إيمانكم} الظاهري، فإنهم بإظهارهم الإيمان دخلوا في زمرة المؤمنين، فاستهزاؤهم هذا كان كفراً ونقضاً لذلك الإيمان، وقد اعتذر بعضهم اعتذاراً صادقاً فرجع عن نفاقه ودخل الإيمان قلبه، فقبل الرسول عذره وعفا الله عنه.

وفي بعض التفاسير: إنه كان مخشي بن حُمَيّر، ويسمى عبد الرحمن، وسأل الله بعد توبته أن يقتل شهيداً لا يعلم أحد مكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر، ولذا قال سبحانه: {إن نعف عن طائفة منكم} وهو التائب حقيقةً {نعذب طائفة بـ} سبب {أنهم} بقوا على نفاقهم و {كانوا مجرمين} لم ينفكوا عن الجريمة.

[٦٧] ثم بيّن سبحانه حقيقة المنافقين وصفاتهم بقوله تعالى: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض} أي أنهم من طبيعة واحدة وطينة واحدة {يأمرون بالمنكر} يأمر بعضهم بعضاً بإتيان المنكر، من الكفر والمعاصي {وينهون عن المعروف} فإذا أراد أحدهم أن يعمل بطاعة نهاه غيره {ويقبضون أيديهم} يمسكونها عن الإنفاق، بخلاف المؤمن الذي يبسط يده بالمال، أو المراد: قبض أيديهم عن كل خير {نسوا الله} عملوا عمل الناسي وإن كانوا ذاكرين له، فكما أن الناسي يترك المنسي، كذلك هؤلاء يتركون أوامر الله سبحانه {فنسيهم} الله سبحانه أي تركهم وشأنهم لا يهديهم طريقاً ولا يفعل بهم صلاحاً. وليس المراد «النسيان» حقيقة، لأن الله سبحانه لا ينسى {إن المنافقين هم الفاسقون} الذين خرجوا عن طاعة الله سبحانه، وإن أظهروا الإيمان، و«الفسق» عبارة عن الخروج عن الطاعة. وهذه الآية تُعطي ميزان النفاق إلى يومنا، وما أكثر أمثال هؤلاء في زماننا هذا.

[٦٨] {وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار} وحيث كان الكلام حول المنافقين مفصلاً، أما الكفار فذِكْرُهم استطرادٌ {نار جهنم} يعذبهم بها جزاءً لما اقترفوا من الآثام {خالدين فيها} دائمين لا يخرجون منها {هي حسبهم} أي أن النار تكفيهم جزاءً لذنوبهم وكفرهم ونفاقهم {ولعنهم الله} طردهم عن نعيمه ورضوانه، فإن اللعن بمعنى الطرد {ولهم عذاب مقيم} يقيم عليهم فلا يجدون خلاصاً منه. ولعل المراد بذلك: العذاب العام في الدنيا والآخرة، فإن النفاق خِلة يكون صاحبها دائم التعب والنصب لأنه بين المؤمن، المهين له، الحَذِر منه، وبين الكافر الذي لا يقبله لأنه لم يتمسك بالكفر كما تمسك الكافر الصريح بكفره.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

[٦٩] إن هؤلاء المنافقين حالهم {ك} حال {الذين من قبلكم} من الكفار والمنافقين الذين كانوا يُظهرون الإيمان بالأنبياء ويُبطنون الكفر، أو يُحادّون الأنبياء ويكفرون بما أُنزل إليهم {كانوا أشد منكم قوة} فإن بعض الأمم كانت قواهم المادية والجسمية أكثر من أمة الرسول (صلى الله عليه وآله). كما يشهد بذلك التاريخ. {وأكثر أموالاً وأولاداً} لخصوبة النسل فيهم وازدهار التجارة والعمران عندهم {فاستمتعوا بخلاقهم} «الخلاق» النصيب، أي صرفوا نصيبهم من المال والقوة والأولاد في الاستمتاع والملذات عوض أن يصرفوها في شكر المنعم وما أمر به {فاستمتعتم} أنتم. يا أمة محمد (صلى الله عليه وآله). أي المنافقون منهم {بخلاقكم} أي بنصيبكم {كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم} دون أن تعتبروا بمصيرهم فتصرفوا نعم الله سبحانه فيما أمر {وخُضتم} في الكفر والاستهزاء وملاذ الدنيا {كالذي خاضوا} أي كخوض أولئك الأولين {أولئك} الذين صنعوا هذه الصنائع السيئة {حبطت أعمالهم} الحسنة، لأن الحسنة لا تقبل مع الكفر والنفاق والعصيان، قال سبحانه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[٥١]. ومعنى الحبط ذهاب الأجر {في الدنيا} إذ لم ينتفعوا بها، فإن الانحراف عن مناهج الله سبحانه يوجب المشاكل التي لا تكافأ بها الأعمال، فمثلاً الثروة توجب رفاه الإنسان، أما إذا كانت مقترنة بالانحراف فإنها توجب الضنك والضيق عوض الرفاه {والآخرة} فلا ثواب لأعمالهم الخيرة {وأولئك هم الخاسرون} الذين خسروا أنفسهم وكل شيء عندهم.

[٧٠] {ألم يأتهم} استفهام إنكاري، أي ألم يأت إلى هؤلاء المنافقين {نبأ} أي خبر {الذين من قبلهم} من الأمم {قوم نوح} (عليه السلام) حيث أهلكهم الله بالغرق {وعاد} قوم هود (عليه السلام) أهلكهم الله بالريح {وثمود} قوم صالح (عليه السلام) أهلكهم بالرجفة {وقوم إبراهيم} (عليه السلام) نمرود وأتباعه، حيث سلب الله ملكهم ونعمتهم {وأصحاب مدين} قوم شعيب (عليه السلام)

(٥١) سورة المائدة: ٢٨.

أهلكهم بعذاب يوم الظلة {والمؤتفكات} من «ائتفك» بمعنى انقلب، أي البلاد التي انقلبت وهي بلاد قوم لوط (عليه السلام) حيث أهلكوا، وذلك أن الله سبحانه أمر جبرائيل فقلب تلك المدن بأن جعل عاليها سافلها {أتتهم رسلهم بالبينات} أي بالحجج الظاهرة والأدلة البينة، لكنهم عصوا وأبوا وتمردوا على الله ورسله {ف} أهلكهم الله بذنوبهم و {ما كان الله ليظلمهم} فتعذيبهم بأنواع العذاب لم يكن ظلماً منه سبحانه لهم {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} فقد عوقبوا بسبب تمرّدهم وعصيانهم، وهؤلاء الكفار والمنافقون حالهم حال أولئك، إن تمردوا وعصوا أُخذوا بذنوبهم، فليحذروا أن يصيبهم ما أصاب مَن قبلهم.

[٧١] ولما بيّن سبحانه صفات المنافقين وما فعل بهم كما فعل بأسلافهم، بيّن صفات المؤمنين والعاقبة الحسنة التي تنتظرهم {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} فإن كل واحد منهم ينصر صاحبه ويؤيده ويُعينه، لأنهم من عنصر واحد وأصل واحد وتجمعهم عقيدة واحدة {يأمرون بالمعروف} أي الأمور الحسنة التي يعرفها الناس من واجب أو مندوب شرعاً وعقلاً {وينهون عن المنكر} الذي ينكره الناس من حرام أو مكروه شرعاً وعقلاً {ويقيمون الصلاة} يداومون على فعلها ويحثّون الناس عليها {ويؤتون الزكاة} أي الحق المفروض، أو مطلق الصدقة، فإن الزكاة تطلق عليهما {ويطيعون الله ورسوله} فيما يأمرهم وينهاهم {أولئك} المؤمنون الذين هذه صفاتهم {سيرحمهم الله} إما المراد: رحمتهم في الجنة، ولذا دخلت «السين»، وإما المراد: في الدنيا، ودخول «السين» لإفادة كون الرحمة إنما تأتي بعد مدة من استمرارهم في العمل ونجاحهم في الامتحان، فلا يتوقع المؤمن أن تشمله الرحمة فوراً بمجرد وقوعه في مشكلة، وإنما تؤخر عنه للامتحان والاختبار {إن الله عزيز} غالب على أمره متمكن من إنفاذ إرادته {حكيم} في تدبيره وفعله، فيفعل الأشياء حسب المصلحة.

[٧٢] {وعد الله المؤمنين والمؤمنات} بالإضافة إلى الخير في هذه الحياة {جنات تجري من تحتها الأنهار} من تحت قصورها وأشجارها {خالدين فيها} دائمين لا يزولون عنها {و} وعدهم {مساكن طيبة} مهيأة فيها الأثاث والرياش، طيبة الهواء والمرافق بحيث يطيب فيها العيش {في جنات عدن} العدن، والإقامة والخلود، نظائر، أي أنهم في جنات الخلود. وورد في بعض الأحاديث: «إنها أعلى الجنان مما لم يخطر على قلب بشر»[٥٢] {ورضوان من الله أكبر} أي أن رضاه سبحانه على هؤلاء المؤمنين أكبر من كل ذلك، فإن الإنسان إذا علم برضى الكبير منه ارتاح ضميره، فكيف به لو علم برضاه سبحانه عنه. ومن المعلوم أن ارتياح الضمير أكبر من ارتياح الجسد.

{ذلك} النعيم الجسدي والروحي للمؤمنين والمؤمنات {هو الفوز} والنجاح {العظيم} الذي لا نجاح فوقه ولا فوز أكبر منه وأعظم.

---

(٥٢) المستدرك: ج٦، ص٦٢.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)

[٧٣] وحيث ذكر سبحانه أحوال الكفار والمنافقين وبيّن صفاتهم الذميمة، أوجب الجهاد لتخليص البشرية منهم {يا أيها النبي} (صلى الله عليه وآله) {جاهد الكفار} بالمقاتلة والمحاربة وبيان عقائدهم السخيفة، فإن هذا الجهاد نوع من أنواع الحرب الباردة ـ في الاصطلاح الحديث ـ {والمنافقين} وجهاد المنافقين بالوعظ والإنذار لهم، وإجراء الحدود عليهم، وتخويف الناس من النفاق. وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يجاهدهم مرة بإظهار نفاقهم، وتارة بضرب الحصار عليهم، كما قال سبحانه: (وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)[٥٣]، وأخرى بنهي المؤمنين عن أن يتصفوا بخلة النفاق.

ومن المحتمل أن يراد بالمنافق هنا: الكافر المنافق، فإن بعض الكفار ينافق بإظهار الودّ للمسلم وتأليفه وهو ألد الأعداء له، في مقابل الكافر الصريح الذي يظهر عداءه وشحناءه.

{واغلظ عليهم} حتى يرتدعوا، فإن الغلظة في الكلام والسلوك مع شخص خليق بأن يردعه عن عمله، كما قال سبحانه: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)[٥٤]، {ومأواهم} أي محلهم ومصيرهم، من «أوى» إذا اتخذ مكاناً {جهنم وبئس المصير} أي بئس المرجع والمأوى لهم.

[٧٤] ومن المنافقين من يتآمرون على الرسول (صلى الله عليه وآله) ويقولون عنه أشياءً، إذا استنطقهم الرسول حلفوا بالله كذباً أنه لم يصدر منهم شيء، فقد كان جماعة منهم خرجوا مع الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى «تبوك» وكانوا كارهين لذلك، فإذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا الرسول (صلى الله عليه وآله) وانتقصوه، فأبلغ ذلك «حذيفة» إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) فطلبهم وقال: ما هذا الذي بلغني عنكم. فأخذوا يحلفون بالله ما قالوا شيئاً، فأنزل الله سبحانه هذه الآية تفضحهم {يحلفون

---

(٥٣) سورة التوبة: ١١٨.

(٥٤) سورة الفتح: ٣٠.

بالله ما قالوا} أي أقسم هؤلاء المنافقون بالله بأنهم لم يقولوا شيئاً ضد الرسول (صلى الله عليه وآله) {ولقد قالوا كلمة الكفر} فإنهم بسبّ النبي (صلى الله عليه وآله) والطعن في الإسلام صاروا كفاراً {وكفروا بعد إسلامهم} الظاهري، فإن المنافق إذا أظهر الإسلام صار مسلماً، فإذا صدرت منه كلمة الكفر صار كافراً.

لا يقال: إنهم إن كفروا وجب عليهم حدّ المرتد.

لأنا نقول: إنهم كانوا مرتدين عن ملّة، ولا يُحدّ مثلهم، وإنما يُستتابوا، وإنكارهم كان بمنزلة التوبة، وإن كان توبة صورية لا حقيقية.

{وهموا بما لم ينالوا} فقد أرادوا إخفاء نور الإسلام، وذلك يتحقق بكل ما يهتم به المنافق من إرادة قتل النبي، وإيجاد الفساد بين المسلمين، وإخراج الرسول (صلى الله عليه وآله) من المدينة، لكنهم لم ينالوا ذلك ولم يقدروا على ما هموا به، بل انعكس الأمر فقد زاد الإسلام علوّاً، والرسول ارتفاعاً، والمسلمون سموّاً.

وقد ورد في بعض الأحاديث: تأويل الآية بالذين خالفوا الرسول في قصة «غدير خم» وأرادوا إخماد نور الوصي، وقالوا في الرسول كلاماً بذيئاً[٥٥].

{وما نقموا} النقمة الإنكار والغضب، أي أن هؤلاء لم ينكروا على المسلمين {إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله} فإن الله سبحانه أغنى المسلمين وأنعم عليهم، بفضل إرشادات الرسول، فلم يكن للمسلمين ذنب يستحقون به النقمة من المنافقين، ولكن المنافقين كرهوا ذلك حسداً، أو المراد: أن الله أغنى هؤلاء المنافقين، فكان من اللازم أن يحبوا الله ورسوله حيث أعطاهم الغنائم لكنهم جعلوا مكان الشكر كفراناً، كما يقال: «لم يكرهني فلان إلا لأني أحسنت إليه».

{فإن يتوبوا} عن نفاقهم ويرجعوا إلى الحق {يك خيراً لهم} في دنياهم وفي آخرتهم حيث يكونون كسائر المسلمين لا يُجتنب أحد منهم ولا يكرههم المسلمون، ويقال في مثل هذه المواضع «خير» مقابل ما يظن أنه خير، وإن لم يكن إلا شراً واقعاً {وإن يتولوا} أي يستمروا على إعراضهم عن الحق وسلوكهم سبيل النفاق {يعذبهم الله عذاباً أليماً} مؤلماً موجعاً {في الدنيا} باجتناب المسلمين لهم، وتضييق العيش عليهم، كما قال سبحانه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)[٥٦]، {و} في {الآخرة} بالنكال والنار {وما لهم} ليس لهم {في الأرض من ولي} يلي أمورهم ويحبهم {ولا نصير} ينصرهم، فليس كما ظنوا أن المنافقين ينصرونهم إذا وقعوا في المشاكل، فإن المنافق حيث اختمر على طبيعة النفاق، لا ينصر حتى أخاه وأقرب الناس إليه.

---

(٥٥) بحار الأنوار: ج٣٧، ص١١٥.

(٥٦) سورة طه: ١٢٥.

[٧٥] {ومنهم} من المنافقين {من عاهد الله} أي عهد مع الله {لئن آتانا من فضله} أعطانا الله من كرمه وجوده {لنصدقن} نتصدق على الفقراء {ولنكونن من الصالحين} فيما أعطانا الله فننفق المال في وجهه، ولا نكون مفسدين مسرفين.

روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف كان محتاجاً فعاهد الله، فلما آتاه بخل به. وفي التفاسير: أنه قال للرسول (صلى الله عليه وآله): يا رسول الله! ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال: يا ثعلبة «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» فقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فدعا له الرسول فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، وبعث رسول الله المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية. فقال (صلى الله عليه وآله): «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة»[٥٧].

[٧٦] {فلما آتاهم} أي أعطاهم الله {من فضله} وجوده ما طلبوه {بخلوا به} ولم يدفعوا حقه ولم يفوا بما عاهدوا عليه {وتولوا} أي أعرضوا عن إعطاء حقه كما أمر الله {وهم معرضون} عن دين الله وأحكامه وأوامر الرسول وأعمال الخير.

[٧٧] {فأعقبهم} فأورثهم بخلهم ونقضهم لعهد الله {نفاقاً في قلوبهم} فإن الإنسان إذا أعرض عن أمر كبير لا بد وأن يختلق لنفسه تبريرات وأعذاراً، ليبرّر موقفه، وذلك هو النفاق {إلى يوم يلقونه} أي يلقون جزاء بخلهم، فالضمير عائد إلى البخل، وأريد به جزاءه، أو المراد نفس البخل، بناءً على تجسيم الأعمال، أو الضمير عائد إلى الله سبحانه المعلوم من السياق، و«ملاقاة الله» إنما هي في القيامة بملاقاة حسابه، فإنه سبحانه منزّه عن المكان والرؤية.

وذلك {بـ} سبب {ما أخلفوا الله ما وعدوه} بسبب خلفهم للعهد الذي عاهدوا، من أن الله إذا أعطاهم من فضله تصدّقوا وكانوا شاكرين {وبما كانوا يكذبون} أي وبسبب كذبهم على الرسول (صلى الله عليه وآله) أو المراد بالكذب عليه: أن الصدقة أخت الجزية ـ كما تقدم ..

[٧٨] {ألم يعلموا} استفهام إنكاري، أي أليس يعرف هؤلاء المنافقون {أن الله يعلم سرهم} المخفي في نفوسهم {ونجواهم} التي يتناجون بها مع أمثالهم من المنافقين؟ فإن المنافق لا بد وأن يتناجى مع أمثاله لجعل حلول ومبرّرات لموقفهم النفاقي، كما تدورالأسرار في نفوسهم فيقلبون أوجه الرأي للخلاص من مأزقهم {وأن الله علام الغيوب} يعلم ما غاب عن الحواس، من الأمور المختفية في النفوس، والنجوى، وغيرهما، فإذا علموا ذلك، فلماذا لا يخشون منه سبحانه ولا يفعلون حسب مرضاته؟

---

(٥٧) مستدرك الوسائل: ج١٣، ص٢٥٦.

[٧٩] وكان من المنافقين من يرصدون للمسلمين ليعيبونهم، فقد جاء رجل من المؤمنين بصاع من تمر للصدقة، فقال المنافقون: إن الله غني عن صاعه، وإنما جاء بذلك حتى يُذكر في المتصدقين. وجاء رجل آخر بصرّة من دراهم، فقالوا: إنه جاء بذلك للرياء، فعابوا المكثر بالرياء، والمقل بالإقلال، فنزل قوله تعالى: المنافقون {الذين يلمزون} «اللّمز» هو الطعن، أي يطعنون {المطوّعين} أي معطي الصدقة تطوعاً من «اطّوع»، أصله «تطوع»، أدغمت التاء في الطاء، وجيء بهمزة الوصل، لتعذر الابتداء بالساكن {من المؤمنين} ولعلّ ذكر هذا للدلالة على أن إيمان المتطوع كان اللازم أن يحجز القائلين من الطعن بهم، لكنهم منافقون لا يبالون بالإيمان والمؤمنين {في الصدقات} كما طعنوا فيمن أعطى الدراهم {و} يلمزون {الذين لا يجدون إلا جهدهم} أي إلاّ طاقتهم في الإنفاق والتصدق، كما عابوا من أعطى الصاع {فيسخرون منهم} ويستهزئون بهم {سخر الله منهم} أي يُجازيهم جزاء سخريتهم. وقد تقدم تفصيل الكلام في سورة البقرة، في قوله سبحانه: (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)[٥٨]، {ولهم عذاب أليم} مؤلم موجع.

(٥٨) سورة البقرة: ١٦.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)

[٨٠] روي أنه عند نزول آية «الذين يلمزون» في حق المنافقين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا فوعدهم النبي (صلى الله عليه وآله) بالاستغفار، فنزلت الآية: {استغفر لهم} يا رسول الله {أو لا تستغفر لهم} الصيغة الأولى للأمر، والمراد بها المبالغة في الإياس، أي سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر فإنهم لا يستحقون الغفران، ولذا لا يغفر الله لهم {إن تستغفر لهم سبعين مرة} صيغة مبالغة يراد بها الكثرة، كما يقال: «لو قلت لي ألف مرة ما قبلت» لا يريد الألف، بل المراد أنه لا يقبل وإن قال فوق الألف {فلن يغفر الله لهم} لأنهم جُبلوا على النفاق والجَبْل عليه لايفيده الاستغفار، وهذا ليس إهانة للرسول ـ كما زُعم ـ بل أفرغ التوبيخ لأولئك في هذا القالب، كما تقدم في قوله: (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)[٥٩].

وإن قيل: كيف جاز للرسول أن يعدهم بما لم يفعل؟

قلنا: إن ثبتت الرواية، لم يكن به بأس لأن الاستغفار إنما كان لأجل أن يغفر الله، فإذا أخبر سبحانه بأنه لا يغفر لم يبق للاستغفار مجالاً، كما لو وعد إنسان بإطعام زيد ثم مات زيد. ثم إنه كان مراد الرسول (صلى الله عليه وآله) الاستغفار بالشرط فلم يكن إخباراً مطلقاً حتى يقال أنه يلزم جهله بالمستقبل، وأنه تكلم من عند نفسه، وهذا ينافي قوله تعالى: «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»[٦٠].

---

(٥٩) سورة الأعراف: ١٥١.

(٦٠) سورة النجم: ٤ و٥.

{ذلك} الذي تقدم من عدم قبول توبتهم وعدم فائدة الاستغفار بالنسبة إليهم {بـ} سبب {أنهم} أي المنافقين {كفروا بالله ورسوله} كفراً باطناً، وإن أظهروا الإسلام {والله لا يهدي القوم الفاسقين} فإنه سبحانه لايلطف بهم اللطف الخفي بعد أن خرجوا عن طاعته وخالفوا أوامره عن علم وعمل.

[٨١] {فرح المخلفون} «المخلّف» بصيغة المفعول من باب «التفعيل» هو المتروك خلف مَن مضى، وسُمّي مخلفاً لأنه تخلّف بنفسه، أو خلّفه شخص آخر وأبقاه، كالمؤخّر، {بمقعدهم} هو «مصدر ميمي» بمعنى «القعود» أي أن من تخلفوا عن الجهاد في تبوك، فرحوا بقعودهم {خلاف رسول الله} أي بعده، أو بمعنى: بقاؤهم خلافاً للرسول (صلى الله عليه وآله)، فقد فرحوا بأنهم نجوا من تلك السفرة المتعبة الخطرة {وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم} ترجيحاً للراحة على التعب {في سبيل الله} ولإعلاء كلمته {وقالوا} قال أولئك المخلّفون للمسلمين ولنظرائهم من المنافقين: {لا تنفروا} أي لا تذهبوا للجهاد {في الحر} فإن وقت خروجهم كان مصادفاً للحر الشديد {قل} يا رسول الله لهؤلاء: {نار جهنم} التي تجب للمتخلّف {أشد حرّاً} من هذه الحرارة التي يلاقيها المجاهدون، فهي أولى بالاحتراز من هذه {لو كانوا يفقهون} أي يفهمون، والمعنى: أنهم لو فقهوا لعلموا أن نار جهنم أولى بالاحتراز والتجنّب.

[٨٢] إن الفرح الذي فرحه المخلفون بسبب بقائهم يوجب لهم العذاب الدائم، فاللازم أن يضحكوا قليلاً لأنه لم يبق لهم مجال للضحك، فقد استحقوا بذلك العقاب، والمهدّد لا يضحك {فليضحكوا قليلاً} إنه ليس أمراً بالضحك وإنما بيان لوجوب التقليل من ضحكهم {وليبكوا كثيراً} حيث عملوا ما يستحقون به البكاء حيث اشتروا النار بفرارهم من الزحف {جزاءً بما كانوا يكسبون} من النفاق والتخلّف عن الرسول (صلى الله عليه وآله).

[٨٣] . {فإن رجعك الله} يا رسول الله من هذه الغزوة . غزوة تبوك . {إلى طائفة منهم} لا خصوصية للرجوع إلى الطائفة، وإنما المقصود ترتيب الأثر على تلك الطائفة من المنافقين الذين تخلفوا عن تبوك {فاستأذنوك} أي طلبوا منك الإذن {للخروج} معك إلى غزوة أخرى {فقل} لهم: {لن تخرجوا معي أبداً} إلى الغزوة {ولن تقاتلوا معي عدواً} فإنا قُطعنا عنكم ولا صلة بيننا وبينكم {إنكم رضيتم بالقعود} عن الجهاد {أول مرة} في غزوة تبوك {فاقعدوا مع الخالفين} الذين يخالفوننا، وكونوا معهم دائماً، إن الذي يترك الإنسان في ساعة العسرة لا يصلح أن يكون معه، فطبعه طبع انهزامي مُخلد إلى الدعة، ولو خرج لم يزد إلا خبالاً وخذلاناً، فلذا كان اللازم أن يُجتنب عنه إطلاقاً، بالإضافة إلى أن الإسلام في غنى عنه، وهو لا يستحق شرف الجهاد فليبق في بيته ويكن مع الخالفين.

[٨٤] ثم نهى سبحانه نبيه عن الصلاة على مثل هؤلاء المنافقين ليحذر غيرهم من النفاق، ولأنهم لا يستحقون الرحمة والغفران {ولا تصلّ على أحد منهم مات} أي إذا مات أحد هؤلاء المنافقين

فلا تصلِّ على ميتهم {أبداً} أي إلى الأبد، فإنه تجوز الصلاة على مَن لم يُصَلَّ عليه إلى آخر العمر. على قول. لكن المنافق لا يستحق ذلك {ولا تقم على قبره} أي لا تقف على قبره للدعاء كما هو عادة الناس أن يقفون على قبر المسلم يدعون له ويستغفرون من أجله.

وذلك بسبب {إنهم كفروا بالله ورسوله} وإسلامهم الظاهري إنما حقن دماءهم وحفظ أموالهم وأعراضهم، لكنه لم يُدخلهم في زمرة المؤمنين الذين لهم الكرامة {وماتوا وهم فاسقون} خارجون عن طاعة الله سبحانه. ثم إن المراد بـ«الصلاة» طلب الرحمة له، كما أن المراد بـ«الوقوف على قبره» ذلك، فلا ينافي ذلك ما فعله النبي (صلى الله عليه وآله) بعبد الله ابن أُبيّ المنافق الذي مات فصلّى الرسول عليه، ولعنه عقيب الرابعة. ثم إنه قد اختلفت الأقوال حول هذا المنافق مما لا يهمنا التعرّض له.

[٨٥] {ولا تعجبك} يا رسول الله، أي لا تنظر نظرة إعجاب. المستلزمة للتكريم. {أموالهم} أي أموال المنافقين {وأولادهم} الكثيرة، كيف قد مُنحوا ذلك، وأنها تدل على تكريم الله لهم، بل بالعكس {إنما يريد الله أن يعذبهم بها} بهذه الأموال والأولاد {في الدنيا وتزهق أنفسهم} «زَهَق النفس» عبارة عن هلاكها {وهم كافرون} فهم بين عذاب الدنيا للمال والأولاد من التبعة والهموم، وبين عذاب الآخرة حيث أنهم يموتون مع الكفر. وقد مر تفسير الآية فراجع.

ولعل المقصود من تكرار الآية: النهي عن هذا النوع من التكريم اللاشعوري للكفار والمنافقين، فإن نظر الإعجاب هو نظر التكريم، فيختلف المقصود هنا من المقصود هناك.

[٨٦] {وإذا أنزلت سورة} من القرآن الكريم تتضمن {أن آمنوا بالله} إما بالنسبة إلى غير المؤمنين، وإما بالنسبة إلى المنافقين، أي آمنوا إيماناً صحيحاً، وإما بالنسبة إلى المؤمنين بقصد إبقائهم على الإيمان واستقامتهم فيه نحو «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» {وجاهِدوا مع رسوله} لإعلاء كلمة الإسلام، فآمنوا، وادعوا غيركم إلى الإيمان والجهاد {استأذنك} أي طلب منك الإذن في عدم الجهاد {أولوا الطول} أي أصحاب المال والقدرة والغنى {منهم} من المنافقين {وقالوا ذرنا} أي دعنا {نكن مع القاعدين} الذين ليس عليهم جهاد، من النساء والصبيان والعاجزين.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)

[٨٧] {رضوا} أي رضي هؤلاء المنافقين {بأن يكونوا مع الخوالف} جمع «خالفة»، وهي المرأة سميت به لأنها تتخلف عن الجهاد، أو هو أعم من «الخالف» فإن «فارس» يجمع على «فوارس»، والمراد: كل من تخلف عن الجهاد من النساء والصبيان والعاجزين {وطبع على قلوبهم} فإنهم بسبب نفاقهم طبع عدم الإيمان على قلوبهم {فهم لا يفقهون} قبح عملهم وتركهم للجهاد، كشأن كل إنسان انغمر في الشهوات والمفاسد، فإنه لا يعرف قبح عمله بل يراه حسناً.

[٨٨] {لكن الرسول والذين آمنوا معه} إيماناً صادقاً {جاهدوا بأموالهم} بإنفاقها في سبيل الله. وسمي جهاداً لأن بذل المال يحتاج إلى جهد النفس وتعبها {وأنفسهم} يقاتلون الكفار ويجالدون المردة الفجار {وأولئك لهم الخيرات} المنافع والأشياء الخيرة من خيرات الدنيا والآخرة، فإنهم يحرزون حسن السمعة والمال في الدنيا، والنعيم في الجنة {وأولئك هم المفلحون} الفائزون الناجحون.

[٨٩] {أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار} أي من تحت أشجارها وقصورها، فهم مُشرفون على الأنهر الجارية، وفي ذلك لذة ومتعة {خالدين فيها} أبداً لا خروج لهم منها، ولا زوال لنعيمها عنهم {ذلك} الإحراز للخيرات وللجنات {الفوز العظيم} الذي لا شيء أعظم منه.

[٩٠] أمام الحركات ينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف: قسم يأتي وينضم إلى الحركة، وقسم لا يأتي ولا يعتذر، وقسم يأتي ويعتذر. وهكذا حدث في غزوة تبوك، فالمؤمنون الصادقون انضموا إلى الرسول (صلى الله عليه وآله)، والمنافقون بعضهم جاء ليعتذر بلا مبرّر، وبعضهم لم يجئ إطلاقاً حتى للاعتذار {وجاء المعذّرون} من «اعتذر» باب «التفعيل» بمعنى: أبدى العذر بدون أن يكون ذا عذر في الحقيقة {من الأعراب} إما المراد بهم: أهل البدو، وإما المراد: أهل الحضر، لكنهم شُبّهوا بالأعراب في عدم استحقاقهم التكريم، كما قال سبحانه: (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً)[٦١].

(٦١) سورة التوبة: ٩٧.

جاء هؤلاء {ليؤذن لهم} أي يأذن لهم الرسول (صلى الله عليه وآله) في التخلّف عن الجهاد {وقعد} المنافقون {الذين كذبوا الله ورسوله} في باطنهم، وإن أظهروا التصديق في الظاهر. كما هو شأن المنافق. فإن هؤلاء لم يأتوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) للاعتذار بل قعدوا في مكانهم وكأن أمراً لم يحدث {سيصيب الذين كفروا منهم} من هؤلاء {عذاب أليم} مؤلم موجع، وإنما خصص جماعة منهم لأنهم لم يكفروا كلهم، فالمعذورون من الأعراب غالباً لا ينطوون على الكفر، وإنما يتخلّفون تكاسلاً.

[٩١] ثم بيّن سبحانه أهل الأعذار الذين يسقط عنهم الجهاد بقوله: {ليس على الضعفاء} جمع «ضعيف» كالشيخ الكبير، والضعيف البنية، والعاجز لعمىً أو زمانه أو ما أشبه. مما لا يسمّى مرضاً. {ولا على المرضى} جمع «مريض» وهم أصحاب الأسقام والعلل المانعة عن الجهاد {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون} ليست معهم نفقة الخروج وأسباب السفر {حرج} ضيق، فلا جناح عليهم في التخلّف عن الجهاد {إذا نصحوا لله ورسوله} بأن أخلصوا العمل من الفسق، وكانوا ناصحين في قرارة نفوسهم. وليس المعنى: وجود الحرج لغير الناصح. من جهة عدم الجهاد. بل المراد: أن عدم الحرج المطلق إنما يترتب على العاجز الناصح، أما العاجز المنافق فعليه حرج من جهة نفاقه.

{ما على المحسنين من سبيل} لا سبيل على تعذيبهم ولا جناح عليهم، فإنهم محسنون في أعمالهم. ولا يخفى أن الآية لا تدل على أن مُريد الإحسان لا جناح عليه وإن أساء، فإن الظاهر منها أن المحسن حقيقةً لا جناح عليه {والله غفور} لذنوبهم {رحيم} بهم، فلا يحمّلهم فوق طاقتهم.

[٩٢] {ولا} سبيل وجناح {على الذين إذا ما أتوك} «ما» زائدة تأتي لتزيين الكلام، أي إذا جاءوك يا رسوا الله {لتحملهم} أي يسألونك مركباً يركبون عليه ليجاهدوا {قلت} يا رسول الله: {لا أجد ما أحملكم عليه} فليس عندي مركب تركبونه {تولوا} أي رجعوا {وأعينهم تفيض من الدمع حزناً} أعينهم تسيل بالدموع من حزنهم {ألاّ يجدوا ما ينفقون} ينفقونه لأجل تهيئة وسائل الجهاد.

ورد أن سبعة من الأنصار جاءوا إلى الرسول يطلبون منه المركب ليرافقوه في غزوةٍ، فاعتذر منهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بأنه لا يجد ما يحملهم، فرجعوا باكين[٦٢]. وفيهم نزلت الآية.

[٩٣] {إنما السبيل} أي السبيل لعقابهم ولومهم {على الذين يستأذنونك} يطلبون إذنك للتخلّف عن الجهاد والبقاء في المدينة {وهم أغنياء} قادرون على الجهاد ونفقاته {رضوا} أي رضي هؤلاء المستأذنون {بأن يكونوا مع الخوالف} من النساء والصبيان والعاجزين {وطبع الله على قلوبهم} بسبب نفاقهم {فهم لا يعلمون} بأن تخلّفهم عن الجهاد يسبب لهم الخزي والعار وعذاب النار، بل يظنون أن تخلّفهم يعود عليهم بالنفع.

---

(٦٢) راجع مجمع البيان: ج٥، ص١٠٤.

نهاية الجزء العاشر